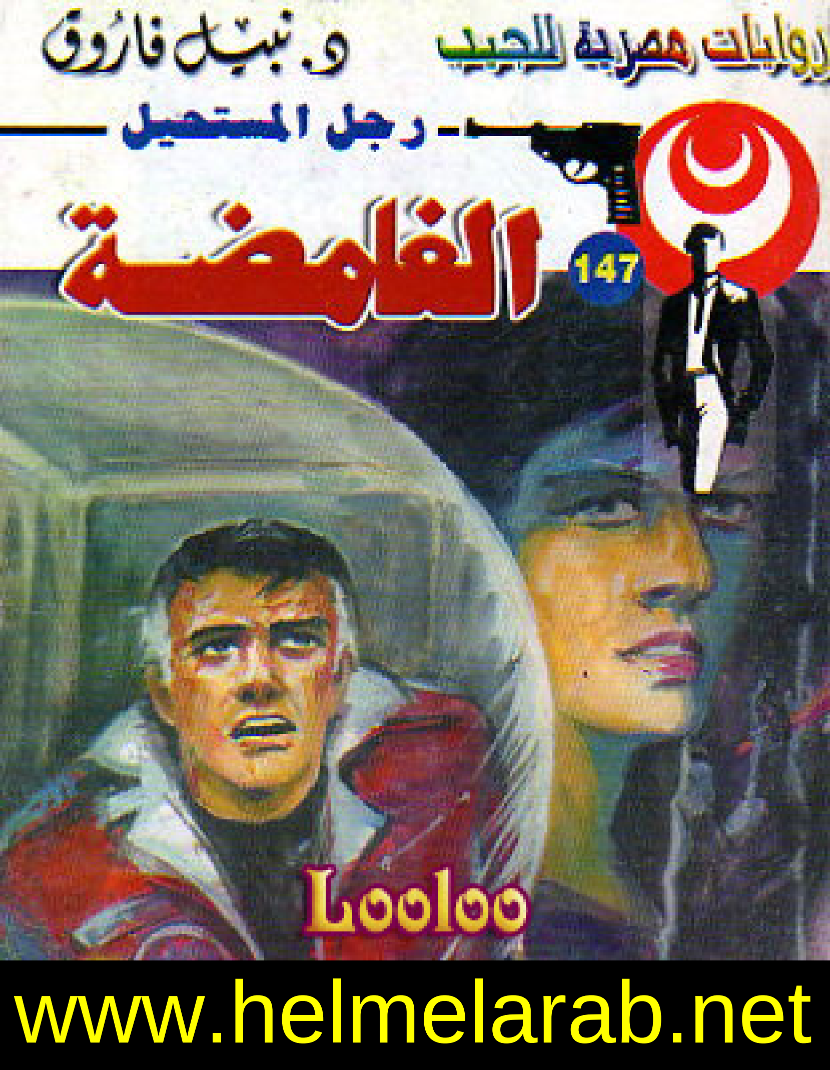

روايات مصرية للجيب
د. نبيل فاروق
رجل المستحيل
الغامضة
147
Looloo
www.helmelarab.net

رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١) .. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لست لغات حية، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعددة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١ـ المحيط ..

ران صمت تام، على حجرة مكتب مستشارة الأمن القومى الأمريكية، وكل من فيها يتطلع إليها فى اهتمام وترقب، وهى تراجع آخر صور الأقمار الصناعية، على شاشة الكمبيوتر الخاص بها، قبل أن ترفع عينيها إليهم، قائلة فى مقت، اقترن بأسلوبها ولهجتها، فى الآونة الأخيرة:

ـ كارثة:

خفقت قلوب الجميع فى عنف، وسألها وزير الدفاع الأمريكى، وقد جف حلقه من فرط الانفعال:

ـ ماذا حدث بالضبط ؟!

هزت رأسها فى عصبية، وهى تشير إلى شاشة الكمبيوتر، قائلة:

ـ كل وسائلنا لم تنجح فى كشف موقع التحكم فى قمر الليزر الصناعى.

بهت الجميع لقولها، وتبادل وزير الدفاع نظرة مفعمة بالتوتر، مع مدير المخابرات المركزية الأمريكية، وكلاهما يعود بذهنه إلى البداية ..

بداية تلك الأحداث الرهيبة ..

إلى تلك اللحظة ؛ التى ذهب فيها مندوب من المخابرات الأمريكية ، لمقابلة مدير المخابرات العامة المصرية ، حاملاً مطلبًا صفيقًا متعنتًا ، بعزل (أدهم صبرى) من المخابرات العلمية ، وإلا طبّقت الولايات المتحدة الأمريكية عقوبات صارمة ، على (مصر) والمصريين ..

ورفضت (مصر) الإنذار الأمريكى ..

رفضته بكل الإباء والشمم من منطلق حرية (مصر) واستقلالها ، ورفضها التام للتدخل فى شئونها ، من أية جهة كانت ، وتحت أى مبدأ كان ..

وبدأت الأمور تتطور على نحو مخيف ..

وكمحاولة للخروج من المأزق ، وتجنيب وطنه مغبة المواجهة ، تقدّم (أدهم) باستقالته من جهاز المخابرات ..

ولكن طلبه هذا قوبل بالرفض ..

وبمنتهى الإصرار ..

وهنا ، وكحل مؤقّت ، حصل (أدهم) على إجازة لمدة شهر ..

وربما لأوّل مرة فى حياته ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد واصل الموقف تطوّره ، و ...

وفجأة ، ظهرت تلك الغامضة ..

زعيمة مجهولة ، لا أحد يعلم هويتها أو طبيعتها ..

فقط ما أعلنته هى عن نفسها ..

أنها جبارة ، قاسية ، تعرف الكثير ..

والكثير جدًا ..

والأخطر أنها امرأة بلا قلب ..

وبلا رحمة ..

على الإطلاق ..

وبمبادرة وحشية ، أزاحت الزعيمة الغامضة غريمها الأول مستر (X) ، زعيم أخطر منظمات الجاسوسية الخاصة ، واحتلت موقعه ..

ثم سحقته سحقًا ..

دمّرت كل منشآت تلك المنظمة الخاصة ، واستولت على كل مراكزها وشبكات اتصالاتها ..

ومحتها تمامًا من الوجود ..

الوحيد الذى استطاع النجاة بحياته ، فى اللحظة الأخيرة ، هو مستر (X) نفسه ، وبوسيلة احتياطية بالغة السرية ..

وفى نفس الوقت ، الذى بدأت فيه الزعيمة الغامضة بحثها ، عن مستر (X) الهارب ، كانت تعلن عن وجودها لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية ..

وبمنتهى العنف ..

فباستيلائها وسيطرتها التامة ، على أحد الأقمار الصناعية الأمريكية ، التى كانت مخصصة لبرنامج حرب النجوم القديم ، أصبحت تمتلك مدفعًا ليزريًا فضائيًا عملاقًا قادرًا على إزالة أى هدف أمريكى من الوجود ، بضغطة زر واحدة ..

ولقد أطلقت مدفعها المدمّر بالفعل ..

أطلقته لتسحق هدفًا بعد الآخر ، وتثير موجة فزع ورعب لا حدود لها ، فى قلب الإدارة الأمريكية ، والكونجرس الأمريكى بأكمله ..

ولم يكن أمام الأمريكيين ، حفاظًا على ماء وجههم ، وضمانًا لعدم انتقالها إلى سحق أهداف علنية ، تكشف قوتها وسيطرتها ، سوى الموافقة على منحها الفدية التى طلبتها ..

أضخم فدية فى التاريخ كله ..

مائة مليار دولار ..

نفس المبلغ ، الذى اعتمده الكونجرس ، لشن حرب (العراق) ..

ولم يكن هذا شرطها الوحيد ..

كان لديها شرط آخر رهيب ..

ومحطّم لكرامة الأمريكيين تمامًا ..

لقد طلبت أن يكون همزة الوصل ، بينها وبينهم ، ضابط مخابرات مصرى ..

(أدهم صبرى) شخصيًا ..

وكان أكبر مأزق ، وقع فيه الأمريكيون ..

مأزق اضطرهم إلى الاعتذار للحكومة المصرية ، ومناشدتها الموافقة على أن يتعاون (أدهم صبرى) مع الإدارة الأمريكية ، للخروج منه ..

ومن أجل (مصر) وصالحها ، وافق (أدهم) ..

ولأن المهلة كانت محدودة للغاية ، كان من المحتم أن

يؤمن له الأمريكيون وسيلة فريدة، للسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، خلال ست ساعات فحسب !!

أى فى نصف الزمن اللازم للسفر، فى الظروف العادية ..

وعلى نحو لم يحدث من قبل قط، منح الأمريكيون (أدهم) واحدة من أحدث مقاتلاتهم الحربية، ليقودها بنفسه، عبر المحيط الأطلنطى، على أن يتوقف مرتين، للتزود بالوقود من حاملتى طائرات فى قلب المحيط فى حين تقوم طائرة وقود خاصة بتزويده بما يلزمه، عندما يقترب من سواحل الولايات المتحدة الأمريكية ..

وتم كل شيء وفقًا للخطة ..

كل شيء تقريبًا ..

وفى نفس الوقت، الذى أحكمت فيه الزعيمة الغامضة سيطرتها على الأمور، وسحقت بلا رحمة كل محاولة للوصول إليها أو استعادة السيطرة الأمريكية على قمر [illegible] الصناعى، كان (أدهم) قد هبط بالفعل على حاملتى الطائرات، وتزود بالوقود مرتين، ثم أكمل رحلته عبر المحيط، حتى حانت لحظة تزوده بالوقود للمرة الثالثة، بواسطة طائرة وقود ضخمة ..

وتم اللقاء، فى الموعد المحدد تمامًا، و ...

وفجأة، ظهرت مقاتلة أخرى ..

مقاتلة هاجمته بكل العنف والشراسة ..

وعندئذ .. عندئذ فقط، اكتشف (أدهم) أن مقاتلته تخلو من كافة الأسلحة ..

تمامًا ..

ولم يكن أمام (أدهم) سوى أن يناور ..

ويناور ..

ويناور ..

ولكن تلك المقاتلة تخلت عنه فجأة، وانقضت على طائرة الوقود، وأطلقت نحوها صاروخها ..

وانفجرت طائرة الوقود ..

انفجرت انفجارًا هائلاً، انطلقت معه المقاتلة الأخرى مبتعدة، تاركة مقاتلة (أدهم) التى شارف وقودها على النفاد، وقد اختل توازنها، وأصبحت مهددة بالسقوط .. فى قلب المحيط(*) ..

(*) لمزيد من التفاصيل، راجع الجزء الأول .. (المأزق) .. المغامرة رقم (١٤٦).

كان كل من بالحجرة يعرف تفاصيل ما حدث ..

فيما عدا الجزء الأخير ..

لذا فقد تساءل مدير المخابرات فى لهفة :

ـ وماذا عن أملنا الأخير ؟!

أدارت مستشارة الأمن القومى عينيها إليه ، قائلة بلهجة مستنكرة :

ـ أملنا الأخير ؟!

أومأ برأسه إيجابا ، وهو يقول بنفس اللهفة :

ـ نعم .. رجل المخابرات المصرى .. (أدهم صبرى) .

التفت إليه وزير الدفاع الأمريكى بكل دهشة الدنيا ، فى حين انقلبت سحنة مستشارة الأمن القومى فى غضب مستنكر ، جعل مدير المخابرات يشد قامته ، قائلاً فى صرامة :

ـ مهما يكن مقتك المكتسب ، للعرب عمومًا ، والمصريين خصوصًا ، ففى عالمنا لا يسعنا أن ننكر تفوق شخص ما ، والا فشلت تعاملاتنا معه تمامًا ، ولو أنك سألت أى شخص كان ، عن (أدهم صبرى) هذا ، لما وجدت لديه سوى التقدير والاحترام .. بل والانبهار أيضًا ، فى بعض الأحيان .

هتفت ، غاضبة مستنكرة :

ـ الانبهار ؟! بخصمنا ؟!

أجابها فى سرعة وصرامة :

ـ خصمنا أو صديقنا .. هذا لا يصنع فارقًا لدينا ، فالرجال ينبهرون بالخبراء والمحترفين فى عالمنا ، ويعتبرونهم دومًا مثلاً يحتذى ، وأملاً يسعون لبلوغه ، بغض النظر عن هوياتهم وانتماءاتهم .

مطت شفتيها ، مغمغمة فى سخط :

ـ لا عجب إذن ، فى أنكم لم تنجحوا فى عملكم جيدًا ..

انعقد حاجباه فى غضب ، وهو يقول فى حدة :

ـ سيدتى .. على الرغم من مكانتك ، لن أسمح لك بـ ...

قاطعه وزير الدفاع ، وهو يسألها فى توتر :

ـ بغض النظر عن كل هذا .. أين هو بالضبط ؟! أين رجل المخابرات المصرى الآن .

مطت مستشارة الأمن القومى شفتيها مرة أخرى ، وهى تعاود ضرب أزرار الكمبيوتر ، والتنقل بين صور الأقمار الصناعية المختلفة ، قبل أن ينعقد حاجباها ، وهى تقول فى توتر بالغ :

ـ مستحيل !

بدا قلق عارم على وجه مدير المخابرات ، فى حين تساءل وزير الدفاع الأمريكى بكل توتر الدنيا :

ـ ماذا هناك ؟!

هزت رأسها ، وهى تقول :

ـ المحيط خال .

ردد مدير المخابرات ، فى عصبية شديدة :

ـ خال ؟!

رفعت عينيها إليه ، قائلة :

ـ نعم .. لا أثر لمقاتلتنا ، التى يقودها ذلك المصرى .. لقد اختفت واختفى .. اختفيا تماماً ..

وكانت مفاجأة ..

وصدمة ..

صدمة قاسية ..

للجميع ..

* * *

موجة التضاغط العنيفة التى نشأت عن انفجار طائرة

الوقود الأمريكية ، دفعت مقاتلة (أدهم) لمسافة طويلة ، وأخلت بتوازنها ، على نحو رهيب مخيف ..

وبكل قوته ، وخبرته ، وتجاربه السابقة ، راح (أدهم) يقاتل ؛ للسيطرة على الطائرة ، واستعادة توازنها ..

راح يقاتل ..

ويقاتل ..

ويقاتل ..

لم يكن الأمر سهلاً أو بسيطاً ، بل كان أشبه بالمستحيل ..

ولكن (أدهم) كان أهلاً لهذا ..

يكفى أنه الرجل ..

رجل المستحيل ..

كانت مقاتلته ، التى اختلّ توازنها تهوى ..

وتهوى ..

وتهوى ..

ومياه المحيط تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

ولكن (أدهم) لم يفقد أعصابه ، أو سيطرته على عقله دفعة واحدة ..

لقد تضافرت عضلاته ، وخلايا مخه الرمادية ، وإرادته الفولاذية ، واجتمعت كلها تحت قيادة أعصاب ثابتة قوية ، وقدرة مذهلة على تقدير المواقف ، وتحليلها ، و ...

واتخاذ القرار ..

وبأسرع وقت ممكن ..

ومع كل هذا ، كان من الطبيعي أن ينجح (أدهم) في السيطرة على تلك المقاتلة الأمريكية الحديثة ..

وعلى ارتفاع ثلاثة أمتار فحسب من سطح المحيط اعتدلت المقاتلة ..

وتوازن جناحاها ..

وانضبطت كل مؤشراتها ..

وبمنتهى العنف ، تطاير رذاذ مياه المحيط ، حول المقاتلة ، التي تطلقت فوق سطحه ، لعشرات الأمتار ، على ارتفاع ثلاثة أمتار فحسب ، وعينا (أدهم) تتابعان كل المؤشرات في سرعة ..

كل شيء توازن وانضبط ..

كل شيء فيما عدا مؤشر الوقود ..

لقد كان يقترب في سرعة من الصفر ..

ويقترب ..

ويقترب ..

وأدرك (أدهم) أن أمامه دقائق قليلة ، قبل أن ينفد الوقود تمامًا ..

دقائق قليلة ، والمحيط يحيط به من كل جانب ..

وإلى مدى البصر ..

محيط صامت ، خال ، تتراقص المياه على سطحه ، دون بروز يابس واحد ، على مرمى البصر ..

لا جزر ..

أو بواخر ..

أو حتى زورق صغير ..

والوقود ينفد ..

وينفد ..

وينفد ..

ويسرعة ، راح عقل (أدهم) يدرس هذا الموقف الجديد ..

ليس هناك أمل ..

أعنى أمل ..

من الناحية المنطقية ..

أما من الناحية الروحانية ، فهناك حتمًا أمل ما ..

أمل فى رحمة الله (سبحانه وتعالى) ..

ولو أن (أدهم) يفتقر إلى أى أمل عقلانى ، فسيتشبث حتمًا بكل أمل إلهى !

وحتى آخر لحظة ..

وبكل حزم الدنيا ، غمغم (أدهم) :

ـ فليسع العبد أولاً ، حتى يساعده ربه بعدها .

قالها ، وجذب مقود المقاتلة فى حزم ومهارة ..

وارتفعت المقاتلة ..

ارتفعت ..

وارتفعت ..

وارتفعت ..

وبأقصى سرعتها ..

ولو أن طيارًا محترفًا قد رآه ، فى تلك اللحظة ، لاتسعت عيناه بمنتهى الدهشة ..

ولاتهمه بالجنون حتمًا ..

فعلى عكس أى منطق طبيعى ، كان (أدهم) يستنفد آخر قطرات الوقود ، فى خزان مقاتلته ، ليرتفع ..

ويرتفع ..

ويرتفع ..

وبكل قوتها وسرعتها التى تتجاوز سرعة الصوت بعدة مرات ، ارتفعت المقاتلة الأمريكية الحديثة ، حتى بلغت السحب ..

وتجاوزتها ..

و ..

ونفدت آخر قطرة وقود ..

ومع ذلك الصوت ، الذى هدرت به المحركات لآخر مرة ، أدرك (أدهم) أن مرحلة الارتفاع قد انتهت ..

وأن عليه أن يستعد للهبوط ..

وعلى الرغم من توقف المحركات ، واصل هو التحكم فى الدفة ، وميل الجناحين ، ليميل بالطائرة معتدلاً ، وهو يغمغم :

ـ والآن ، لنر إلى أى مدى يمكنك الانزلاق دون وقود ، أيتها المقاتلة الجديدة .

مال بالمقاتلة ميلاً خفيفاً ، وتركها تنخفض بزاوية هادئة ، متزلقة على بساط الهواء ، كما لو أنها مجرد طائرة شراعية بسيطة ، محاولاً قطع أطول مسافة ممكنة ، قبل أن تسقط المقاتلة فى المحيط ، وتغوص إلى أعماقه ..

كان هذا آخر ما يملك فعله ..

أن يقطع مسافة طويلة بقدر الإمكان ، عسى أن يجد أمامه قطعة من اليابسة ، أو جزيرة من الجزر الصغيرة ، التى تتجاهلها الخرائط فى المعتاد ..

أو حتى بارجة أمريكية ، تجوب المياه الدولية ..

وليحظى بأطول مسافة انزلاق هوائى ممكنة ، كان عليه أن يرتفع ، إلى أقصى حد ممكن ..

وهذا ما فعله ..

ولكن المقاتلة ظلت تنزلق ، على بساط الهواء ، وهى تنخفض ..

وتنخفض ..

وتنخفض ..

وما من شىء يظهر ، على مدى البصر ..

المحيط ما زال هو المحيط ..

صامت ..

هائل ..

خال ..

ومياهه تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

ومع اقتراب المقاتلة ، إلى حد حرج ، هزّ (أدهم) كتفيه ، ومطّ شفتيه ، مغمغماً :

ـ يبدو أنك مضطر لاختبار مهارتك فى السباحة أيضاً يا (أدهم) ، وقدرتك على الصمود ، لأطول وقت ممكن .

لم تكن هناك فائدة فى السيطرة على المقاتلة مع هذا الانخفاض المخيف ؛ لذا فقد تراجع (أدهم) ، واسترخى فى مقعده ، على عكس كل المتوقَّع ، وراح يراقب مياه المحيط ، وهى تقترب بسرعة خرافية ، وما إن أصبحت المقاتلة ، على ارتفاع ثلاثة أمتار فحسب ، من سطح المحيط ، أمسك ذراعا مجاورة لمقعده ، وهو يقول فى سخرية عجيبة :

ـ معذرة يا أحدث المقاتلات الأمريكية .. لقد حانت لحظة فراقنا .

ومع آخر حروف كلماته ، جذب الذراع بكل قوته ..

وفى نفس اللحظة التى ارتطمت فيها المقاتلة بالماء ، طار سقف كابينة القيادة ، واندفع مقعد (أدهم) إلى أعلى ، بوساطة دافع صاروخى قوى ، إلى ارتفاع عشرين مترًا ، قبل أن تنفتح مظلة كبيرة ، تبدأ معه مرحلة هبوط هادئة ..

وأمام عينيه ، شاهد (أدهم) المقاتلة الأمريكية تغوص فى مياه المحيط الأطلنطى ..

وتغوص ..

وتغوص ..

و ....

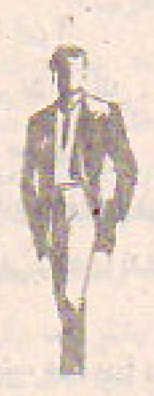
وفجأة ، انعقد حاجباه بمنتهى الشدة ، وهو يهبط بمظلته ، نحو مياه المحيط ..

فما حدث أمام عينيه ، فى تلك اللحظة ، كان يخالف كل قواعد العقل والمنطق ، وحتى قوانين الطبيعة ..

كان أمرًا مدهشًا بحق ..

وإلى أقصى حد .

* * *



٢ـ الزعيمـة ..

« كل ما عثرنا عليه مجرّد حطام .. »

نطقت مستشـارة الأمن القومـي الأمريكيـة العبـارة فـي عصبية شديدة ، وهي تراجع صور الأقمار الصناعية للمرة الثانية ، قبل أن تستطرد في حدة :

ـ حتى هذا الحطام ، يقول الخبراء : إنـه يخص طـائرة الوقود ، وليس مقاتلتنا الحديثة .

هتف وزير الدفاع في توتر :

ـ أين ذهبت مقاتلتنا إذن ؟!

وتساءل مدير المخابرات في قلق :

ـ وأين ذهب (أدهم صبرى) ؟!

التفت إليه وزير الدفاع الأمريكي في حدة ، قائلاً :

ـ أيهما أكثر أهمية في رأيك .. ذلك المصرى ، أم أحدث مقاتلة أنتجتها مصانعنا .

أجابه مدير المخابرات ، دون ذرة واحدة من التردد :

ـ (أدهم صبرى) بالطبع .

رفعت مستشارة الأمن عينيها إليه ، بكـل سخط وغضب الدنيا ، في حين لوّح وزير الدفاع بذراعه كلها ، هاتفـاً باستنكار :

ـ أى قول هذا ؟!

أجابه مدير المخابرات ، في سرعة وصرامة :

ـ القول العاقل الحكيم ، في موقف عصيب كهذا .

صاح به وزير الدفاع :

ـ هـل تعلم مـا الذى يمكن أن نخسره ، لـو وقعت تلك المقاتلة ، في قبضة خصومنا ؟!

أجابه مدير المخابرات ، بمنتهى الصرامة :

ـ بالتأكيد .. سنخسر طائرة جديدة ، مـا زلنا نملك تصميماتها الأساسية ، والعقول التى أخرجتها إلى الوجود .. ولكن مـاذا سنخسر ، لو فقدنا رجل المخابرات المصرى ، في ظروف كهذه .

ثم اعتدل ، وشد قامته ، وتضاعفت صرامته ، وهو يضيف :

ـ الجواب ، الذى لم يخطر لكما ببال ، هو أننا قد نخسر سيطرتنا على (أمريكا) كلها .. قد نخسر موقعنا ، وقوتنـا ، وزعامتنا للعالم الجديد .. هل يكفيكما هذا ؟!

تبادلت مستشارة الأمن القومى نظرة ساخطة ، مع وزير الدفاع ، قبل أن تقول فى عصبية :

ـ فليكن .. لقد فقدنا أثرهما معًا ، على أية حال .. ذلك المصرى ، ومقاتلتنا .

امتقع وجه وزير الدفاع ، وهو يقلب كفيه ، قائلاً :

ـ ماذا سنفعل إذن ؟!

زفرت مستشارة الأمـن القومـى فـى عصبيـة ، وهـى تجيب :

ـ دعنـا نـدرس إمكانيـة إرسـال قطـع من الأسطول إلى منطقة الاختفاء ، و ...

قاطعها وزير الدفاع فى حدة :

ـ ماذا سنفعل مع تلك الحقيرة ؟! إنها تصرّ على أن يقوم ذلك المصرى بعملية الاتصال ؟!

اتسعت عينا مستشارة الأمن القومى ، وكأنها قد انتبهت إلى هذه الحقيقة لأول مرة ، وهتفت فى ارتياع :

ـ رباه ! ماذا سنفعل الآن ؟!

وألقت نظرة مذعورة على ساعتها ، قبل أن تتابع :

ـ الوقت يمضى بسرعة مخيفة ، وذلك المصرى مفقود تمامًا ، والأرجح أنه يرقد الآن مع مقاتلتنـا الحديثة فى قاع المحيط ، و ..

قاطعها مدير المخابرات فى حزم :

ـ ليس بالضرورة .

أدارت عينيها إليه فى مقت ، قائلة فى حدة :

ـ أقمارنا الصناعية مسحت تلك البقعة من المحيط ، بمنتهى الدقة ، ولم تجد سوى حطام طائرة الوقود ، فأىّ تفسير لذلك ، سوى غرق مقاتلتنا ، بقائدها ، إلى أعمق الأعماق ؟!

هزّ مدير المخابرات المركزيـة الأمريكيـة رأسـه ، وهـو يقول فى حزم :

ـ لا يمكنك الجزم ، فمع رجل مثل (أدهـم صبرى) ، كل شىء جائز ومحتمل .

قالت فى حدة :

ـ إنه مجرّد بشر .

أجابها فى سرعة وحزم :

ـ وما أدراك إلى أى مدى ، يمكن أن تبلغ قدرات البشر .

انعقد حاجباها فى شدة ، وعادت تتبادل نظرة التوتر مع وزير الدفاع ، وقد أطل من رأسيهما تساؤل واحد ، صنعته كلمات مدير المخابرات ..

تُرى أين (أدهم صبرى) الآن ؟!

أين ؟!

* * *

فجأة استعاد (أدهم صبرى) وعيه ..

كان هناك صداع عنيف ، يؤلم كيانه كله ، وخدر عجيب يسرى فى أطرافه ، و ...

وجزء ممحو تمامًا من ذاكرته ..

جزء يحيط به ظلام تام ، ما بين هبوطه بمظلة الطوارئ فى مقعد المقاتلة ، ورقوده على ذلك الفراش الخشن ، داخل هذا المكان ، الذى لم يلق عليه نظرة واحدة بعد ..

وعندما حاول أن يفعل ، شعر وكأن كلاً من جفنيه محاط بقيد ثقيل ..

ثقيل إلى درجة لم يعهدها من قبل قط ..

لذا فقد استرخى تمامًا ، واستنفر إرادته الفولاذية ، ليجبر عقله وعضلاته على الاستكانة والهدوء ، وهو يطلق لأفكاره العنان ..

كيف أتى إلى هذا المكان ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

آخر ما يذكره هو أن مقاتلته قد نفد وقودها ، وهو على ارتفاع شاهق ، فتركها تنزلق على الهواء ، كما لو كانت طائرة شراعية بسيطة ..

وراح المحيط يقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

وفى اللحظة الأخيرة ، جذب ذراع مقعد الطوارئ ..

وانطلق جسده مع المقعد إلى أعلى ..

وانفتحت المظلة ..

وبدأ الهبوط ..

و ....

وهنا ، حدث ذلك الأمر العجيب !

المقاتلة الأمريكية الحديثة لم تعد تغوص ، فى مياه المحيط ..

لقد بدأت ترتفع ..

وترتفع ..

وجذب هذا انتباهه بشدة ..

وأثار دهشته إلى أقصى حد ..

هذا ما يذكره فى وضوح ..

وبعدها يكتنف الظلام رأسه ..

وذاكرته ..

هناك شىء ما حدث ..

شىء يخالف الطبيعى والمألوف ..

شىء أفقده ذاكرته ..

أو جزءاً منها على الأقل ..

كان جسده مسترخياً تماماً فى رقدته ، وعيناه مغلقتين فى هدوء ، كما لو كان نائماً ، أو فاقد الوعى ..

ولكن الواقع أن عقله كان يعمل ..

وبأقصى طاقته ..

وقوته ..

وإرادته ..

كان يبذل جهداً يفوق البشر ، للسيطرة على مشاعره ، واستعادة ذلك الجزء المفقود من ذاكرته ..

وراح يعتصر ذهنه ..

ويعتصره ..

ويعتصره ..

ورويداً رويداً ، راح جزء من الصورة يتضح ..

كان هناك جسم يصعد ، من أعماق المحيط ..

جزء من جسم لامع ، أشبه بمرآة كبيرة ، يصعب تمييز سطحها المصقول ، من بين المياه المحيطة بها ..

وبكل دهشة الدنيا ، حدّق فى ذلك الشىء ، الذى صعد فى بطء حاملاً تلك المقاتلة الأمريكية الحديثة على حافته ..

وبنظرة سريعة ، حاول أن يقيس أبعاده ..

لم يكن فى حجم غواصة حديثة ..

أو بارجة ..

أو حتى حاملة طائرات ..

بل كان أضخم من كل هذا ..

أضخم بكثير ..

رصد هذا ، وهو يواصل الهبوط بمظلته ، نحو مياه المحيط ، على مسافة أمتار قليلة من ذلك الجسم وعقله يبحث عن تفسير له ، أو هوية ، أو حتى وسيلة للتعامل معه ، و ...

وفجأة ، انطلق ذلك الشىء نحوه ..

توقفت ذاكرته بغتة ، عند هذه النقطة ، وسرت فى جسده قشعريرة عجيبة ، لم يعتدها أبدًا من قبل ..

قشعريرة يصعب أن تلتقطها أى عين ..

أى عين بشرية ..

ولكن تلك العين الإليكترونية الخاصة ، التى كانت ترصده طوال الوقت ، التقطت تلك القشعريرة ، ونقلتها إلى مضخم خاص ، و ...

« لقد استعاد وعيه .. »

غمغم قائد قوات الزعيمة الغامضة بالعبارة ، فى انفعال واضح ، مع الإشارة الخافتة ، التى أطلقها جهاز الرصد الخاص ، فنفثت هى دخان سيجارتها الطويلة الحمراء فى بطء ، قبل أن تقول :

ــ عظيم .

نطقتها بلهجة عجيبة ، حملت مزيجًا من المقت والسخط والغضب ، والزهو والظفر والاستمتاع ، حتى إن قائد قواتها قد التفت إليها ، متسائلًا فى حيرة :

ــ لماذا احتفظنا به ؟!

أجابته فى هدوء مدهش :

ــ الأمريكيون سيقلبون الدنيا بحثًا عنه .

وابتسمت فى سخرية وحشية ، مضيفة :

ــ لأننى أنتظر قدومه بالتحديد .

أدهشه جوابها ، وحاول جاهدًا أن يربطه بسؤاله ، إلا أنه عجز عن هذا ، فتمتم :

ــ ولكنك ظفرت به بالفعل .

هزّت كتفيها ، ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى قائلة :

ـ إنهم لا يعلمون هذا .

سألها فى حذر :

ـ وهل ستخبرينهم ؟!

هزّت رأسها هذه المرة ، مجيبة فى سخرية :

ـ كلاً بالطبع .

تضاعفت حيرته ، وهو يتطلع إليها فى صمت ، فتابعت بسخرية أكثر :

ـ وسأهددهم بالويل والثبور أيضًا ، لو لم يعملوا على إرساله إلىّ فى سرعة .

غمغم ، وقد بلغت حيرته ذروتها :

ـ ولكنه هنا بالفعل .

هتفت :

ـ بالضبط .

ثم أطلقت ضحكة عابثة طويلة ، قبل أن تضيف :

ـ وهذا ما يجعل اللعبة أكثر إمتاعًا .

هتف بكل دهشة واستنكار الدنيا :

ـ اللعبة ؟!

ألقت سيجارتها جانبًا ، وهى تقول فى صرامة مفاجئة :

ـ نعم يا رجل .. اللعبة .. (شكسبير) قال : أن العالم مجرّد مسرح كبير ، وكل الرجال والنساء مجرّد ممثلين على خشبته(*) ، أما أنا ، فلى رأى آخر .

ومالت نحوه ، وهى تشعل سيجارة جديدة ، مستطردة :

ـ فالعالم كله مجرّد لعبة ، إما أن تربحها ، أو تصبح مجرّد قطعة لا قيمة لها ، على رقعتها الواسعة .

ونفثت دخان سيجارتها فى عمق ، قبل أن تضيف :

ـ ولأننى أعشق اللعبة ، فليس لدى أدنى استعداد لأن أكون مجرّد بيدق على اللوحة .

(*) وليام شكسبير (١٥٦٤ ـ ١٦١٦ م) : أعظم الشعراء والكتاب المسرحيين الإنجليز ، ومن أبرز الشخصيات ، بل ولعله أبرزها على الإطلاق ، فى الأدب العالمى ، يصعب تحديد عبقريته ، بمعيار بعينه من معايير النقد الأدبى ، ولكن كلماته وشخصيات مسرحياته خالدة ، حتى يومنا هذا ، من أشهر مؤلفاته (هاملت) ، (الملك لير) ، و(حلم ليلة صيف) .

وتألقت عيناها ، وهى تميل نحوه ، مضيفة :

ـ سألعب فقط دور الملكة .. الملكة بلا منافس أو منازع .

قالتها ، وعادت تطلق ضحكة عابثة ، عالية ، طويلة ، جعلت وجه الرجل يحتقن فى شدة ، وهو يقول :

ـ ألهذا أحضرت ذلك المصرى إلى هنا ؟! هل ترغبين فى الاستمتاع بقتله عن قرب .

رمقته بنظرة طويلة ، قبل أن تقول فى سخرية :

ـ من الواضح أنك لاتفهم شيئاً .

وتراجعت فى مقعدها ، مضيفة :

ـ المتعة ليست فى قتله .

ونفثت دخان سيجارتها بمنتهى العمق ، وتألقت عيناها ببريق وحشى مخيف ، وهى تضيف :

ـ بل فى هزيمته .

فى نفس اللحظة ، التى نطقت فيها كلمتها الأخيرة ، فتح (أدهم) عينيه لأوّل مرة ، ليلقى نظرة على الحجرة التى يرقد داخلها ..

كانت حجرة صغيرة ، أشبه بزنزانة حديثة ، جدرانها من المعدن المطلى باللون الأبيض ، مع باب من القضبان ، يطل على ممر مضاء بضوء خافت للغاية ، لايكاد يكفى للرؤية ..

الزنزانة نفسها كانت خافتة الضوء ، وإن لم يمنعه هذا من ملاحظة آلات المراقبة ، التى تملأ الجدار ..

كانت هناك كاميرا تصوير فيديوى عادية ، وأخرى للرؤية بالأشعة دون الحمراء ، وثالثة ترصد أية تحركات أو ذبذبات فى المكان ..

وفى بطء حذر ، اعتدل (أدهم) جالساً ، على طرف الفراش الصغير الخشن ، وأدار عينيه فيما حوله ، مغمغماً :

ـ يبدو أننى داخل قطعة بحرية .. بارجة أو ...

بتر عبارته ، وانعقد حاجباه بعض الوقت ، قبل أن ينهض ، ويدق بقبضته على الجدار المعدنى للزنزانة ، ثم يتابع :

ـ أو غوّاصة .

توقّف وسط الزنزانة ، وأدار عينيه فيها مرة ثانيــة ، مضيفاً :

ـ غوّاصة من طراز خاص جداً .

لم يكد يتم عبارته ، حتى شعر بحركة خافتة ، فى الممر الذى تطلّ عليه الزنزانة ، فاتجه إلى قضبانها ، وأرهف سمعه ..

كان هناك وقع أقدام يقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

وقع أقدام أنثوية ، على مسافة ثلاثة أمتار ، وصاحبته تحمل شيئًا ما ، له إيقاع اهتزازى معدنى ..

هكذا أنبأته أذنه الخبيرة ، قبل أن تظهر فتاة ذات ملامح صينية ، قالت فى هدوء ، وهى تنحنى ، لتدفع صينية طعام معدنية ، عبر تجويف رفيع ، أسفل القضبان :

ـ مرحبًا ياسيّد (أدهم) .. أتعشّم أن تكون بحالة جيّدة ، وأن تتمتّع بشهية طيبة ،فالطعام جيد بحق .

رفع (أدهم) أحد حاجبيه ، وخفضه ، وهو يقول فى سخرية :

ـ آه .. من الواضح أننى شخصية شهيرة هنا .

اعتدلت بابتسامة ساحرة ، وهى تقول :

ـ أكثر مما تتصوّر ياسيّد (أدهم) .

قال ، وهو يقترب من القضبان أكثر :

ـ عظيم .. أعتقد أن الشهرة تمنحنى حق الحصول على بعض الأجوبة على الأقل .

تطلّعت إليه فى حذر ، وهى تقول :

ـ سل مايحلو لك ، ولكن لاتقترب من هذه القضبان .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وهو يمسك القضبان ، قائلاً :

ـ هل تخشيننى إلى هذا الـ ...

قبل أن يتم قوله ، دوت فرقعة مكتومة داخل الزنزانة ، التى تألّقت كلها بشرارات زرقاء ، فى الوقت الذى شعر فيه بصدمة عنيفة ، تسرى فى جسده كله ، وتدفعه إلى الخلف بمنتهى العنف ؛ ليرتطم بالفراش الصغير ، ثم يسقط إلى جواره ، مرتطمًا بالأرض فى قوة ..

وفى هدوء مستفز ، غمغمت الصينية الحسناء :

ـ لقد حذرتك .

ولم ينبس ببنت شفة ..

ولكن عقله انطلق يستعيد لحظة سابقة ..

تلك اللحظة ، التى انطلقت فيها شبكة معدنيـة ، من قلب ذلك الجسم ، لتحيط بجسده ، وتطلق فيه صدمـة كهربيـة بالغة العنف ، قبل أن تجذبه فى قسوة إلى قلب المحيط ..

من المؤكد أنه قد فقد وعيه ، فى تلك اللحظة بالتحديد ..

وبعدها تم نقله إلى هنا ..

إلى هذا المكان ..

كان عقله يعمل ، ولكن أطرافه كلها كانت مجمدة ، مشلولة ..

الصاعقة الكهربية العنيفة أفسدت توازن جسده تماماً ..

على الرغم من قوته ..

وصلابته ..

وإرادته ..

وبعينين نصف مغلقتين رأى تلك القضبان تنزاح فى هدوء ، وتلك الفتاة الصينية الحسناء تتقدم نحوه ، وهى تقول بصوت هادئ ، بدا له وكأنه يأتى من أعماق سحيقة :

ـ هذا ما أخبرونا عنه بشأنك بالضبط ، ياسيد (أدهم) .. عنادك يفوق كل حدود .

ثم انحنت نحوه ، متابعة :

ـ ومادمت ترفض تناول الطعام فى هدوء ، فالأفضل أن تعود إلى النوم .

كانت قريبة منه ، أكثر مما ينبغى ..

وباب الزنزانة مفتوح ..

وطريق الفرار متاح ..

كل ما عليه هو أن يزيحها جانباً ، ويثب واقفاً على قدميه ..

وينطلق ..

كل هذا دار فى ذهنه ..

فى ذهنه فقط ..

ولكن جسده لم يقم بأية حركة ..

بأدنى حركة ..

لقد استنفر بالطبع كل طاقته ، وقوته ، وإرادته ، و ...

ولكن جسده عجز عن طاعته هذه المرة ..

عجز تماماً ..

وفى هدوء وثقة ، كشفت تلك الصينية الحسناء ذراعـه ، وابتسمت فى وجهه ابتسامة كبيرة ، وهى تغرس محقنًا فى عروقه ، وتدفع فيها مادة ما ..

مادة دار معها رأسه أكثر وأكثر ..

ثم غاب عن الوعى تمامًا ..

غاب عنه مرة ثانية ، داخل وكر تلك الزعيمة ..

الغامضة ..

والقاتلة ..

* * *



٣ ـ غمـوض ..

التقى حاجبا مدير المخابرات العامة المصرية فى شدة ، وهو ينهى اتصالـه مع السيد رئيس الجمهوريـة ، ويعيد سماعه الهاتف الساخن إلى موضعها ، فسأله معاونـه الأول فى قلق ، وهو يدلف إلى الحجرة :

ـ هل أبلغت السيد الرئيس بآخر الأخبار يا سيدى ؟!

أومأ المدير برأسه إيجابًا ، وتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ لقد أزعج هذا سيادته كثيرًا ، فاختفاء واحد من أفضل رجالنا ، مثل (ن ـ ١) ، فى قلب المحيط الأطلنطى ، دون أن يترك خلفه أدنى أثر ، أمر بالغ الخطورة بالتأكيد .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى توتر :

ـ وبالذات فى مثل هذه الأمور .

وافقه معاونه بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ الأمريكيون يبذلون قصارى جهدهم ، للبحث عن سيادة العميد (أدهم) ، أو عن أية بقايا لمقاتلتهم الحديثة ، ولكن حتى صور الأقمار الصناعية ، لم تعثر على أدنى أثر ..

نهض المدير من خلف مكتبه ، وقلب شفتيه ، وهو يتجه نحو نافذة حجرته ، مغمغمًا فى شرود :

ـ أمر عجيب .

صمت معاونه بعض الوقت ، احترامًا لصمته العميق ، ثم لم يلبث أن قال فى خفوت متردد :

ـ المحيط هائل الحجم ، ومن الممكن أن ..

قاطعه المدير فجأة ، وهو يتساءل فى اهتمام ، دون أن يلتفت إليه :

ـ من نسف طائرة الوقود الأمريكية ؟!

بدت الدهشة لحظة ، على وجه المعاون ، قبل أن يتنحنح ، قائلاً :

ـ الأمريكيون عثروا على حطامها ، منتثرًا على مساحة واسعة للغاية ، مما يوحى بأن صاروخًا قد أصابها فى منتصفها ، كما يقول الخبراء ، ونسفها نسفًا .

استدار إليه المدير فى بطء ، قائلاً :

ـ ومن أطلق ذلك الصاروخ ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ ربما مقاتلة أخرى ، أو ...

بتر عبارته فى تردد ، فسأله المدير فى حزم :

ـ أو ماذا ؟!

أجابه فى حذر :

ـ أو أن سيادة العميد (أدهم) قد ..

قاطعه المدير بمنتهى الحزم :

ـ مستحيل !

هزّ المعاون رأسه ، وقال :

ـ ربما جرت محاولة لاغتياله ، بوساطة أحد قادة طائرة الوقود ، أو ...

عاد المدير يقاطعه ، بنفس الحزم :

ـ قلت لك : مستحيل !

ثم شد قامته ، مضيفًا :

ـ مقاتلة (ن ـ ١) لم تكن مسلحة .

ارتفع حاجبا المعاون فى دهشة ، فتابع المدير فى صرامة :

ـ هذا إجراء أمنى طبيعى ، فالأمريكيون لن يمنحوه مقاتلة حديثة مسلحة ، يفتحون أمامها مجالهم الجوى ، لتهبط فى قلب عاصمتهم ، على مسافة كيلومترات قليلة من حكمهم ..

قال المعاون :

ـ ولكنه يفعل كل هذا لإنقاذهم .

أجابه المدير فى حزم :

ـ (ن ـ ١) لم ولا ولن يقاتل أبدًا ، فى سبيل أية جهة ، إلا من أجل (مصر) ، وهو يسعى لإنقاذ النظام الأمريكى ؛ لأن انهياره سيمتد حتمًا إلى باقى أنحاء العالم ، ولو نجحت جهة ما فى السيطرة عليه ، فلن يمنعها أى شىء فى الوجود ، من السيطرة علينا أيضًا ، طال الزمن أم قصر .. (ن ـ ١) فعلها إذن من أجلنا نحن .. من أجل (مصر) .

وافقه المعاون ، بإيماءة صامتة من رأسه ، وهز رأسه لحظة ، قبل أن يقول فى حيرة :

ـ من نسف طائرة الوقود إذن ؟!

أشار المدير بسبابته ، قائلاً :

ـ هذا هو السؤال .

ثم بدأ يتحرك فى مكتبه ، قائلاً :

ـ لو راجعت كل البيانات ، لوجدت أن (ن ـ ١) كان يقود أحدث وأسرع وأقوى مقاتلة أمريكية ، وعلى الرغم من هذا فقد احتاج إلى التزود بالوقود ثلاث مرات ، خلال رحلته عبر المحيط ، وفى المرة الثالثة ، أرسلوا إليه بطة وقود ، كما يطلقون عليها ، حتى يمكنه إتمام ماتبقى من الرحلة .. وهذه كانت آخر مرحلة تزود بالوقود ، مما يعنى أن خزان مقاتلته كله ، مع سرعتها القصوى ، كان يكفيه بصعوبة ؛ للوصول إلى الساحل الأمريكى .. قل لى إذن : أية مقاتلة تلك ، التى يمكن أن تأتى من هناك ، لتهاجمه ، وتنسف بطة الوقود ، دون أن تخشى رحلة العودة ؟!

انعقد حاجبا المعاون ، وهو يدرس الأمر فى عمق ، ولكن المدير واصل قائلاً فى حزم :

ـ كل قواعد العقل والمنطق إذن ، تقول : إن تلك المقاتلة ، التى نسفت طائرة الوقود بصاروخها ، لم تنطلق من السواحل الأمريكية ، بل من مكان أقرب .

وتوقف فجأة ، وشرد بصره ، وهو يضيف :

ـ أقرب كثيراً .

استوعب المعاون الأمر كله ، فهتف فى حماسة :

ـ من جزيرة ما !

استدار إليه المدير ، وقال فى حزم :

ـ بالضبط .

ثم اتجه نحو الخريطة الكبيرة ، المعلقة على جدار مكتبه ، وأشار إليها ، قائلاً :

ـ اجمع الرجال على الفور ، وادرسوا كل ما يتعلق بالمحيط الأطلنطى ، وكل الجزر الصغيرة فيه ، وبالذات تلك التى يمتلكها أفراد ، أو تمتلكها جهات غير حكومية(*) .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

ـ أعلم أن الأمريكيين يبذلون قصارى جهدهم ، لحل هذا اللغز ، ولكننا لن نقف ساكنين .. سنقاتل بكل طاقتنا وقوتنا من أجل رجلنا (ن ـ ١) ..

(*) النظام الاقتصادى ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، يسمح للأفراد والهيئات بشراء الجزر ، وإقامة نظامها الخاص عليها ، باعتبارها ملكية خاصة .

واكتسب صوته رنة قوية صارمة ، وهو يضيف :

ـ ومن أجل (مصر) .

وانتفض قلب المعاون بين ضلوعه ..

بمنتهى القوة ..

ومنتهى الفخر ..

* * *

« الوقت يمضى بسرعة مخيفة .. »

نطق مدير المخابرات الأمريكية العبارة ، فى توتر بالغ ، داخل المكتب البيضاوى للرئيس الأمريكى ، الذى قال فى عصبية :

ـ ولم تعثروا على ذلك المصرى بعد !

هزت مستشارته الأمنية رأسها فى توتر ، قائلة :

ـ لقد بذلنا قصارى جهدنا ، ولكنه اختفى مع مقاتلتنا تماماً ، ولم تعثر له أية جهة على أى أثر ..

وأشار وزير الدفاع بيده ، قائلاً فى انفعال :

ـ لقد أرسلنا بعض قطع الأسطول ، إلى موقع الاختفاء ، مع حاملة طائرات ، ستنطلق من على متنها طائرات الهليكوبتر ، المزودة ، بلاقطات شديدة الحساسية ، لفحص المنطقة كلها .

مال الرئيس على مكتبه ، قائلاً :

ـ وهل سيكفى الوقت لهذا ؟!

تبادل الجميع نظرة شديدة التوتر ، قبل أن تجيب مستشارة الآمن القومى فى عصبية :

ـ كلا .

لوّح الرئيس بذراعيه ، صائحاً فى حدة :

ـ ما فائدة كل ما نفعله إذن ؟!

أجابه مدير المخابرات فى توتر :

ـ سيادة الرئيس .. لقد بذلنا كل ما بوسعنا بالفعل .. حقيبة الماس النقى جاهزة ، وإعدادها تطلّب الكثير من الوقت والجهد ؛ فليس من السهل جمع قدر من الماس شديد النقاوة ، بقيمة مائة مليار دولار دفعة واحدة .

قال الرئيس فى عصبية :

ـ ومن سيسلم هذا الماس ؟!

هتفت مستشارة الآمن القومى :

ـ وماذا بيدنا لنفعله ، أكثر مما فعلناه ؟!

صاح بها الرئيس فى غضب :

ـ ومن أدرانى ؟! إنها مهمتكم أنتم .

هزّ وزير الدفاع رأسه فى عصبية ، قائلاً :

ـ المشكلة أننا لانجد وسيلة واحدة للاتصال بها .. بل إن كل وسائلنا المتقدمة لم تنجح أبداً ، فى كشف وسيلة اتصالها هى بنا .

تراجع مدير المخابرات ، وهو يقول فى حزم :

ـ من الواضح أن تلك الغامضة تمتلك أحدث تكنولوجيا معروفة ، وأن لديها شبكة معلومات واتصالات مخيفة ، مما يمنحها القدرة على السيطرة على كل الأمور .

قال الرئيس الأمريكى فى حدة :

ـ حتى أمورنا نحن ؟!

التقط مدير المخابرات نفساً عميقاً ، قبل أن يجيب :

ـ نعم ياسيادة الرئيس .. حتى أمورنا نحن .

صاح الرئيس :

ـ إنها كارثة !

وافقته مستشارة الأمن القومى ، مغمغمة :

ـ بالتأكيد .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى اشتعل التلفاز فى حجرة مكتب الرئيس فجأة ، فالتفت إليه الجميع بحركة حادة ، وتساءل الرئيس فى توتر :

ـ من فعل هذا ؟!

غمغمت مستشارة الأمن القومى فى عصبية :

ـ لست أدرى .

لم تكن كلمتها قد اكتملت بعد ، عندما ظهرت صورة تلك الزعيمة الغامضة فجأة على الشاشة ، وهى تنفث دخان سيجارتها الحمراء المستفزة ، قبل أن تلتفت لمواجهتهم ، قائلة بابتسامة صفراء :

ـ لاتشغلوا أنفسكم بمن فعلها .. أنا فعلتها .

اتسعت عينا الرئيس الأمريكى ، وهو يهتف فى ذهول مستنكر :

ـ رباه ! هل بلغت هذا الحد ؟!

اندفعت مستشارة الأمن ، بكل غضب الدنيا ، محاولة الخروج من الحجرة ؛ لاستدعاء طاقم الأمن ، ولكن تلك الزعيمة قالت عبر الشاشة ، فى صرامة قاسية :

ـ مهلاً .. لو غادر أحدكم الحجرة ، أو حاول إجراء أى اتصال هاتفى سينسف مدفع الليزر ، فى قمركم الصناعى ، مبنى البيت الأبيض ، بكل ما فيه .

ثم مالت نحو الشاشة ، مضيفة فى سخرية :

ـ وكل من فيه .

تجمدت مستشارة الأمن القومى فى مكانها ، وانعقد حاجبا مدير المخابرات فى شدة ، فى حين هتف وزير الدفاع فى عصبية :

ـ إنها تخدعنا ، كما فعلت فى المرة السابقة .

غمغم مدير المخابرات :

ـ ليس بالضرورة .

سأله الرئيس فى ارتياع :

ـ هل تعتقد أنه من الممكن أن ..

قاطعه مدير المخابرات ، قبل أن يتم عبارته ، على الرغم من منافاة هذا لكل قواعد اللياقة :

ـ وماذا سيمنعها ؟!

كان تساؤله منطقيًا تمامًا ..

ومخيفًا إلى أقصى حد ..

لذا فقد لاذ الجميع بالصمت دفعة واحدة ، وتجمدوا فى أماكنهم ، وتلك الزعيمة تقول ، عبر شاشة التلفاز :

ـ تبقت أمامكم ثلاث ساعات فحسب ، لتسليم حقيبة الماس ، والسيد (أدهم صبرى) لم يظهر بعد .

تبادل الرجال نظرة أخرى عصبية ، وتساءل وزير الدفاع فى حذر :

ـ ترى هل يمكنها سماعنا ورؤيتنا ، كما يمكننا نحن هذا ، بالنسبة لها ؟!

أجابته الزعيمة على الفور ، عبر شاشة التلفاز :

ـ نعم .. يمكننى هذا .. قل ما يحلو لك .

تراجعت مستشارة الأمن القومى كالمصعوقة ، وهى تهتف :

ـ رباه ! هناك اختراق أمنى رهيب .

اتسعت عينا الرئيس الأمريكى فى ذعر ، وهو يقول :

ـ هنا ؟! فى مكتب الرئاسة ؟!

أطلقت الزعيمة ضحكة طويلة عابثة ، وقالت فى سخرية :

ـ طريف هو أن أرى أكبر وأقوى أربعة أشخاص ، فى العالم كله ، وهم مذهولون مرتجفون ، على هذا النحو !

قالت مستشارة الأمن فى حدة :

ـ من المذهول المرتجف ؟!

أجابتها الزعيمة ، فى تحد مستفز :

ـ أنت .

احتقن وجه المستشارة ، وكادت تنفجر غاضبة ، لولا أن أمسك مدير المخابرات يدها ، فى محاولة لتهدئتها ، وهو يقول للزعيمة :

ـ الواقع أننا فى مأزق كبير .

تراجعت الزعيمة على مقعدها ، وهى تنفث دخان سيجارتها ، قائلة فى برود عجيب :

ـ الآن السيد (أدهم) قد اختفى ، فى قلب المحيط ؟!

اتسعت عيونهم فى ذهول تام ، وهتف الرئيس :

ـ كيف عرفت ؟! كيف عرفت ؟!

غمغم مدير المخابرات فى عصبية :

ـ من الواضح أنها تعرف كل شىء .

هزت الزعيمة كتفيها على الشاشة ، قائلة :

ـ مدير مخابراتكم على حق .

أما المستشارة الأمنية ، فقد انعقد حاجباها بعض الوقت ، قبل أن تشير إلى الشاشة ، قائلة فى حدة :

ـ أنت كنت وراء هذا .. أليس كذلك ؟!

سألتها الزعيمة فى برود :

ـ وراء ماذا ؟!

أجابتها بنفس الحدة :

ـ وراء ما حدث لذلك المصرى ، فى قلب المحيط .

أطلقت الزعيمة ضحكة عالية ساخرة ، قبل أن تواجه الشاشة مباشرة قائلة :

ـ ولماذ أفعل هذا أيتها العبقرية ؟!

أجابتها مستشارة الأمن ، فى سرعة وحدة :

ـ للظفر به .

سألتها الزعيمة ، بلهجة ساخرة مستفزة :

ـ ولماذا أطلب حضوره الآن إذن ؟!

تبادل الكل نظرة أخرى متوترة ، والعقول تبحث عن جواب السؤال ، قبل أن يندفع مدير المخابرات فجأة ، قائلاً :

ـ مادمت تعرفين كل شىء ، كما توحى الأمور ، فلماذا تصرين على ظهور (أدهم صبرى) ؟! لابد أنك تعلمين أننا عاجزون عن العثور عليه بالفعل ؟!

التقطت الزعيمة نفسًا عميقًا من سيجارتها الحمراء ، وقالت :

ـ نعم .. أعلم هذا .

هتفت مستشارة الأمن القومى فى حدة :

ـ لماذا تعبثين بنا إذن ؟!

هزت الزعيمة كتفيها على الشاشة ، وقالت :

ـ اختفاء (أدهم صبرى) ليس مشكلتى .

ثم قسا صوتها بغتة ، وهى ترمقهم بنظرة وحشية ، مستطردة :

ـ إنها مشكلتكم أنتم .

صاح وزير الدفاع في عصبية :

ـ ولكنه اختفى ، ولم يمكننا العثور عليه ! مـاذا نفعل إذن ؟! هل نخسر كل شيء ؛ بسبب أمر لانملك بلوغه .

تألقت عينا الزعيمة بابتسامة خبيثة ، وهي تقول :

ـ إذن ، فأنتم تعترفون بعجزكم .

تراجع وزير الدفاع مصعوقًا ، واتسعت عينا الرئيس في ارتياع ، في حين غمغمت مستشارة الأمن القومي :

ـ أيتها الـ ..

لم تستطع إتمام عبارتها ، خشية عواقبها ، في حين قـال مدير المخابرات الأمريكية في صرامة :

ـ ليس بعد .

أطلقت الزعيمة ضحكة طويلة ، ضاعفت قـدرات الصوت المزدوجة للتلفاز قوتها ، قبل أن تنفث دخان سيجارتها ، قائلة :

ـ ومتى سيحين هذا ؟!

انعقد حاجباه ، وهو يقول ، بلهجة أكثر صرامة :

ـ ما الذي تسعين إليه بالضبط ؟!

هزت كتفيهـا ، وهي تسترخي في مقعدها ، وتقـول فـي لا مبالاة :

ـ الماس .

قال الرجل في قوة :

ـ لا أحد يمكنه أن ينفق ماسات بقيمة مائـة مليار دولار دفعة واحدة .

وأضافت مستشارة الأمن القومي ، في عصبية واضحة :

ـ هذا كفيل بانهيار أسعار الماس ، في العالم كله .

قال الرئيس ، وهو يتراجع في مقعده بحذر :

ـ وربما انهيار الاقتصاد العالمي أيضًا .

صمتت الزعيمة بضع لحظات ، وهي تنفث دخان سيجارتها في بطء ، قبل أن تقول في برود :

ـ ومن يمكن أن يفعل هذا ؟!

مرّت لحظات من الصمت ، قبل أن يقول مدير المخـابرات في بطء :

ـ لماذا الماس إذن ؟!

ابتسمت الزعيمة الغامضة ابتسامة ساخرة ، ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى فى بطء ، قبل أن تجيب :

ـ يمكنك أن تقول : إننى مثل كل النساء .. أعشق الماس .

قالت مستشارة الأمن القومى ، فى شىء من الازدراء :

ـ أنا لا أعشقه .

أجابتها الزعيمة فى سرعة :

ـ أتحدث عن النساء .

قالتها ، وأطلقت ضحكة عابثة طويلة ، احتقن معها وجه مستشارة الأمن القومى غضبًا ، وقالت فى حدة :

ـ ماذا تريدين منا بالضبط ؟!

هزت الزعيمة كتفيها ، وهى تقول فى برود :

ـ ما دمتم غير قادرين ، على إرسال (أدهم صبرى) ، فلتعملوا على توفير بديل ؛ للاتصال المباشر .

سألها وزير الدفاع فى حذر :

ـ مثل من ؟!

صمتت لحظة ، قبل أن تقول ، فى عبث واضح :

ـ الرئيس .. الرئيس الأمريكى شخصيًا .

وشهقت مستشارة الأمن القومى فى قوة ..

فهذا المطلب كان يتجاوز الحدود ..

كل الحدود ..

* * *



٤ـ صراع القوة ..

مرة أخرى ، استعاد (أدهم) وعيه ..

ومرة أخرى ، ظلّ راقدًا على فراشه الخشن الصغير ، وترك جسده يسترخى تمامًا ، وعقله ينطلق ..

وينطلق ..

وينطلق ..

كان يعيد دراسة الموقف كله ..

وبمنتهى الدقة ..

أيًا كان من يحتفظ به ، فى هذا الشىء ، فهو لا ينوى قتله مباشرة ..

وربما لا ينوى قتله على الإطلاق ..

لو أراد هذا ، لما تركه لحظة واحدة ، على قيد الحياة ..

ولكنهم يعرفون من هو ..

يعرفونه جيدًا ..

جدًا ..

من هم إذن ؟!

من يمكن أن يكونوا ؟!

إنهم ليسوا من المخابرات الأمريكية ..

وليسوا من (الموساد) ..

إنهم ينتمون حتمًا إلى جهة غير رسمية ..

إلى منظمة خاصة ..

منظمة جاسوسية ..

ولأول وهلة ، وثب إلى ذهنه اسم مستر (X) ..

ذلك الزعيم الغامض ، الذى يرأس منظمة (X) ..

ثم استبعده عقله على الفور ..

مستر (X) لن يتركه حيًا أبدًا ..

لن يجازف بتركه على قيد الحياة ، أيًا كان الثمن ..

من هم إذن ؟!

من ؟!

أعاد دراسة الموقف كله مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وفي كل مرة ، كانت تتضح أمامه تفاصيل صغيرة ..

ودقيقة ..

الجدران المعدنية ..

القضبان الكهربية ..

القناة الصينية ..

وذلك الجسم الضخم ، الشبيه بمرآة هائلة ..

إنه تنظيم جديد ..

جديد تمامًا ..

وهذا يقود إلى نقطة واحدة ..

تلك الزعيمة الغامضة الجديدة ..

ولكن لماذا ؟!

لو أنها أصرت على أن يكون هو قناة الاتصال الوحيـدة ، بينها وبين الإدارة الأمريكية ، فلماذا توقع به ؟!

ثم لماذا تتركه على قيد الحياة ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

استغرق أكثر من ساعة كاملة ، في حالة الاسترخاء التام هذه ، قبل أن يغمغم :

ـ فليكن .

نطقها ، ثم اعتدل جالسًا ، وقال بصوت مرتفع :

ـ هيا أيها الأوغاد .. لقد استعدت وعيي .

لم يكد ينطقها ، حتـى انتبه فجأة إلى ذلك السوار المعدني ، الملتف بإحكام شديد حول معصمه ، فانعقد حاجباه ، وهو يقول :

ـ ما هذا بالضبط ؟! سوار أمن ؟!

مع نهاية قوله ، انبعث من مكان ما ، داخل تلك الزنزانـة الصغيرة ، صوت أنثوي ساخر ، يقول :

ـ بالضـبط يا سيِّد (أدهم) .. إنه سـوار أمن إليكتروني ، يتيح لك التحرك والتصرف ، خـلال نطـاق محدود للغايـة ، ولو حاولت تجاوزه ، أو إفساد السوار نفسه ، أو نزعه مـن معصمك ، سيسري في جسدك تيار كهربي قوي ، يكفـي لإفقادك الوعي في لحظة واحدة .

لم يكن الصوت مألوفًا لأذنيه ، فاعتصر ذهنه لاستيعابه ، وهو يقول فى حذر :

ـ آه .. تمامًا مثلما يفعلون ، فى بعض السجون الأمريكية المفتوحة(*) ..

أجابه ذلك الصوت الأنثوى ، بنفس اللهجة الساخرة :

ـ بالضبط .

جلس على فراشه فى هدوء ، وهو يشير إلى قضبان الزنزانة ، قائلاً فى سخرية :

ـ ولكن هناك فارق ، وهو أننى داخل سجن مغلق .

أجابه الصوت فى سرعة :

ـ خطأ .

ومع القول ، انفتح باب الزنزانة فى نعومة ، وظهرت تلك الصينية الحسناء أمامه ، وهى تنحنى انحناءة خفيفة ، قائلة :

ـ تفضل يا سيد (أدهم) .

(*) حقيقة .

نهض من مجلسه فى هدوء ، واتجه نحوها فى بساطة ، وقال فى سخرية وهو يشير إليها بحركة مسرحية :

ـ أخبرينى يا فاتنتى الصاعقة ، هل تنوين اصطحابى فى رحلة سياحية ، داخل هذا المكان الساحر ؟!

انحنت مرة أخرى ، قائلة :

ـ بالضبط يا سيد (أدهم) .

ثم أشارت بيدها ، مستطردة فى أدب جم :

ـ تفضل .

هز رأسه نفيًا فى بطء ، قائلاً :

ـ النساء أولاً .. هكذا تقتضى قواعد اللياقة .

اعتدلت ، وشدت قامتها فى اعتداد ، قائلة :

ـ بالتأكيد .

ثم سارت أمامه عبر ممر طويل ، قطعه خلفها فى هدوء ، وهو يتأمل كل ما حوله بمنتهى الدقة ..

« لست أفهم ما يحدث أبدًا .. »

نطق قائد قوات الزعيمة العجوز فى توتر ، وهو يراقب شاشات المراقبة ، فمطت الزعيمة الغامضة شفتيها ، قائلة :

ـ من الطبيعى ألا تفهمه !

قال فى عصبية :

ـ هذا المصرى خصمنا ، وتقولين : إنه خصم لا يشق له غبار ، وعلى الرغم من هذا ، فأنت تسمحين له بالتجول فى مقرنا السرى الخاص ، وكأنه يقوم برحلة سياحية بالفعل !

تراجعت فى مقعدها ، وجذبت نفسًا عميقًا من سيجارتها ، قبل أن تقول فى حزم :

ـ كل شىء مدروس بمنتهى الدقة .

هتف الرجل :

ـ ولكنه سيعرف كل شىء عنا .

قالت فى صرامة :

ـ ليس كل شىء .

ثم نفثت دخان سيجارتها فى عمق ، قبل أن تضيف :

ـ ما نريد أن يعرفه فحسب .

قال فى توتر :

ـ وكيف سنحكم هذا ؟!

أجابته بمنتهى الصرامة :

ـ أنا أحكمه .

أراد أن يقول شيئًا آخر ، ولكنها استوقفته بإشارة صارمة من يدها ، وهى تقول :

ـ كفى .

وعادت تنفث دخان سيجارتها الحمراء ، قبل أن تتابع فى جذل :

ـ دعنى استمتع بما يحدث .

هتف بكل استنكار الدنيا :

ـ تستمتعين ؟!

صاحت به فى خشونة :

ـ اصمت .

ودون أن تبالى باحتقان وجهه الغاضب ، تراجعت فى مقعدها ، والتقطت نفسًا عميقًا من سيجارتها ، وراحت تراقب الشاشات ..

وبمنتهى الاستمتاع ..

كان (أدهم) قد وصل ، فى هذه اللحظة ، مع مرافقته الصينية الحسناء ، إلى قاعة صغيرة ، تحوى آلات ضخمة ، تدار كلها بوساطة أجهزة كمبيوتر رقمية ، فابتسم ، قائلاً :

ـ إننا داخل غوّاصة .. أليس كذلك ؟!

أجابته الصينية فى هدوء :

ـ إلى حد ما .

ابتسم فى سخرية ، وهو يدير بصره فيما حوله ، قائلاً :

ـ وما المقصود بكلمة (إلى حد ما) هذه ؟!

أجابته بنفس الهدوء ، وهى تقوده عبر ممر آخر :

ـ هذا الشىء أكبر من مجرد غواصة .

تبعها عبر الممر الجديد ، وهو يقول بنفس السخرية :

ـ ما هو إذن ؟! (نوتيلوس)(*) .

قلبت شفتيها ، قائلة :

ـ كلاَّ بالطبع .. قلت لك : إنه أكبر بكثير من مجرد غواصة

سألها ، عند نهاية الممر :

ـ وكيف ؟!

رمقته بنظرة سريعة ، من فوق كتفها ، قبل أن تجيب :

ـ سترى بنفسك .

(*) (نوتيلوس) : اسم الغواصة التى استخدمها أبو أدب الخيال العلمى (جول فيرن) ، فى روايته (عشرون ألف فرسخ تحت الماء) ، وتعتبر أول تصور علمى للغواصات الحديثة ، على الرغم من أن الرواية قد صدرت عام (١٨٧٠ م) .

مع نهاية عبارتها ، كانا قد عبرا الممر الثانى ، إلى قاعة واسعة ، توقف أمامها (أدهم) ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول :

ـ رباه !

ففى تلك القاعة الواسعة ، وعند منتصفها تماماً ، كانت تستقر تلك المقاتلة الأمريكية الحديثة ، جديدة ، لامعة ، جافة ..

وبابتسامة ظافرة ، على الرغم من هدوء صوتها الشديد ، قالت تلك الصينية الحسناء :

ـ مفاجأة .. أليس كذلك ؟!

صمت بعض الوقت ، وهو يتأمل المقاتلة ، قبل أن يلتفت إليها ، قائلاً فى هدوء شديد :

ـ هل تعلمين بم يذكرنى هذا ؟!

تطلَّعت إليه متسائلة ، فأجاب فى سخرية :

ـ بأفلام (جيمس بوند) .

ارتفع حاجباها فى دهشة ، فلوَّح بيده ، متابعاً بنفس السخرية :

ـ دائماً يكون هناك مجنون ، يحلم بالسيطرة على العالم ،

ويمتلك دومًا تكنولوجيا مدهشة ، وآلات قوية جبارة ، يستعرض قوتها وخطورتها أمام (بوند) ، الذى يستغل كل ما يعرفه ، ليوجّه إليه ضربة قاصمة ، فى نهاية الفيلم ، الذى ينتهى بانفجار كل شىء ، ونجاة (بوند) بالطبع .

ثم جذبها إليه فجأة ، وأحاط وسطها بذراعه ، مستطردًا :

ـ بين ذراعىْ حسناء فاتنة .

اتسعت عيناها لحظة فى دهشة ، قبل أن تقول :

ـ اطمئن .. هذا لن يحدث هنا .

تطلّع إلى عينيها مباشرة ، وهو يقول فى سخرية :

ـ أنت واثقة ؟!

انعقد حاجباها ، وهى تفلت من ذراعه ، قائلة :

ـ تمام الثقة .

هزّ كتفيه ، ودس كفيه فى جيبى سرواله ، قائلاً :

ـ سنرى .

هتفت فى حدة :

ـ نعم .. سنرى .

ارتفع حاجباه ، فى دهشة ساخرة ، وهو يقول :

ـ رباه ! أنت تفقدين أعصابك مثلنا .

انعقد حاجباها مرة أخرى ، وهى تسيطر على أعصابها ، قبل أن تستعيد هدوءها فى براعة وسرعة ، وتواصل سيرها ، قائلة :

ـ (بوند) عميل سرى خرافى ، ورواياته كلها تنتهى بانفجارات ضخمة ، لأن هذا يرضى جمهور السينما .

هزّ كتفيه ، وهو يتبعها فى هدوء ، قائلاً :

ـ عجبًا ! كنت أتصوّر أنها نهاية حتمية ، فليس لى جمهور سينما ، وعلى الرغم من هذا ، فمعظم عملياتى تنتهى بانفجارات كبيرة .

رمقته بنظرة أخرى ، من فوق كتفها ، قبل أن تقول فى تعالٍ :

ـ لو انتهت هذه العملية بانفجار كبير ، فستكون أنت ضحيته يا سيّد (أدهم) .

عاد يهز كتفيه ، قائلاً :

ـ ليس بالضرورة .

تجاهلت قوله تمامًا ، حتى لايستفز أعصابها ، وأشارت إلى المقاتلة الأمريكية ، وهي تتجاوزها ، قائلة :

ـ بفضلك حصلنا على أفضل مقاتلاتهم ، وتم ضمها إلى أسطولنا الجوى .

رفع حاجبيه ، في دهشة مصطنعة ، وهو يقول :

ـ أسطولكم الجوى ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت في زهو واضح :

ـ لدينا ما يكفي لشن حرب صغيرة .

قال ساخرًا :

ـ على ماذا ؟! مستعمرة للنمل مثلاً ؟!

تجاهلت عبارته تمامًا ، وهي تتجه نحو ممر ثالث ، قائلة :

ـ اتبعني يا سيّد (أدهم) ، وسترى كيف أننا نستطيع التحكُّم في كل شبكات المعلومات ، الأرضية والفضائية ، عبر نظامنا الرقمي المدهش هنا .

قال في اهتمام ، حاول أن يقلقه بنبرة ساخرة :

ـ مركز تحكُّم رقمي ؟! يا للهول !

« هل سيشاهد مركز التحكُّم أيضًا ؟! لا .. هذا يتجاوز كل الحدود ! »

هتف قائد القوات بالعبارة ، في غضب هادر ، فاستدارت إليه الزعيمة ، صائحة في صرامة :

ـ اصمت .

صاح في عصبية :

ـ إنك تكشفين أمامه كل شيء .

أجابته بمنتهى الصرامة :

ـ هذا جزء من خطتي أيها الغبي .

صاح :

ـ أية خطة ؟! أن تنكشف كل أوراقنا أمامه ؟!

صرخت :

ـ قلت : اصمت .

ولكن غضبه كان يتجاوز كل الحدود ؛ لـذا فقد هتف ، على الرغم من تحذيرها الصارم الشديد :

ـ لست على استعداد للمجازفة بحياتي ، وحياة رجالي ، بسبب خطة حمقاء ، لايمكن أن ..

صرخت ، وهى تثب من مقعدها ، وتغرس طرف سيجارتها المشتعل فى كفه :

ـ قلت : اصمت .. اصمت .

أطلق صرخة ألم حادة ، وهو يتراجع فى توتـر ، ويحدق فى وجهها بكل الدهشة والاستنكار ، ولكنها فاجأته بحالة من الهدوء الشديد ، وهى تعود إلى مقعدهـا ، أمام شاشات المراقبة ، وتلقى سيجارتها بعيدًا ، قائلة :

ـ كل شىء يسير على ما يرام ، فلا تفسر الأمر بذعر لا مبرر له .

حدق فيها بضع لحظات أخرى ، قبـل أن يسـألها فـى عصبية :

ـ إذن فأنت ترين أن كل شىء يسير على ما يرام .

قالت فى حزم :

ـ بالتأكيد .

هتف فى عصبية :

ـ ألمجرد أن ذلك السوار الإليكترونى يحيط بمعصمه ؟!

أدارت عينين ساخرتين إليه ، وهى تقول :

ـ السوار الإليكترونى ؟!

ثم انطلقت من حلقها ضحكة عابثة عالية مجلجلة ، جعلت وجهه يحتقن بعض الوقت ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ آه .. فهمت .

قالت فى سخرية :

ـ حقًا ؟!

احتقن وجهه مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ نعم أيتها الزعيمة .. لقد فهمت الموقف كله .

بدا لـه أنها تستمتع بكل لحظة ، وهى تشعل سيجارة جديدة ، قبل أن تسأله ، فى سخرية واضحة :

ـ وما الذى فهمته أيها العبقرى ؟!

أشار إلى الشاشة ، قائلاً فى حدة :

ـ ذلك السوار ليس إليكترونيًا .

مالت بجسدها كله نحوه ، مرددة :

ـ ليس إليكترونيًا ؟!

لم يفهم تلك النبرة فى صوتها بالضبط ، فواصل فى حزم :

ـ كل ما أخبرته به ، حول تلك السوار مجرَّد وهم .. إنه لن يؤذيه ، ولكنك أقنعته بهذا فحسب ، و ..

قاطعته بثقة ، قائلة :

ـ هراء .

توقف فى شك حذر ، فنفثت دخان سيجارتها نحو الشاشة ، وهى تقول :

ـ تلك السوار إليكترونى مائة فى المائة ، وكل ما أخبرته به صحيح تمامًا ، وهى ليست بالتكنولوجيا المتطوِّرة ، فهى مستخدمة بالفعل ، فى بعض السجون الأمريكية المفتوحة ، منذ عدة سنوات ، وهو يعرف هذا جيدًا ، فهو ليس بالسذاجة ، التى يمكن خداعها ، بمجرَّد سوار زائف ..

لقد فحصه بنفسه ، ويعلم أنه حقيقى تمامًا .

سألها فى حيرة متوترة :

ـ لماذا تتوقعين أنه لن يوقفه إذن ؟!

أشارت بيدها إلى الشاشة ، مجيبة :

ـ لأنه (أدهم صبرى) .

هتف بدهشة مستنكرة :

ـ فقط ؟!

رمقته بنظرة ازدراء ، وهى تقول :

ـ لو أنك تدرك حقًا من هو (أدهم صبرى) ، لما نطقت هذه الكلمة الحمقاء ، ولو أنك من النوع الذى يستذكر دروسه جيدًا ، ويؤدى فروضه المنزلية كما ينبغى ، لقرأت ذلك الملف ، الذى أرسلته إليك منذ البداية ، ولأدركت أنك أمام رجل من طراز خاص ، يمتلك كومة من مهارات مدهشة ، بالإضافة إلى ذكاء مخيف ، يجعله خصمًا مناسبًا لمنظمة كاملة ، أو لجهاز مخابرات بأكمله .

قال فى عصبية :

ـ إنه مجرَّد رجل واحد .

قالت فى سخرية :

ـ هذا ما قاله عنه كل الفاشلين ، الذين أذاقهم هو مرارة الهزيمة ، خلال تاريخه الطويل .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلع إلى (أدهم) ، على شاشات المراقبة ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ حسنًا .. وما الذى يمكن أن يفعله رجلك الفذ هذا ؟!

ارتفع حاجباها بدهشة ساخرة ، وهى تقول :

ـ يفعله ؟!

ثم مالت نحوه ، مستطردة :

ـ لقد فعله بالفعل أيها العبقرى .

تراجع بحركة غريزية ، وعيناه تراقبان طرف سيجارتها المشتعل ، وهو يقول فى توتر :

ـ ما الذى فعله بالضبط ؟!

التقطت نفسًا عميقًا ، قبل أن تقول فى استمتاع واضح :

ـ أرأيت كيف أحاط وسط (تيا) بذراعه ، بحركة مسرحية أنيقة .

قال فى توتر :

ـ رد فعل طبيعى ، لرجل متحذلق ، يتصورّ نفسه أكثر رجال المخابرات براعة ووسامة ، ويرغب فى تقليد (جيمس بوند) .

ضحكت فى سخرية ، قائلة :

ـ هراء ! (أدهم صبرى) ليس من هذا الطراز على

الإطلاق ولاتوجد امرأة واحدة ، فى الدنيا كلها ، يمكن أن تسلبه عقله ، أو تخرجه عن شعوره واتزانه .

قال ، متحديًا :

لماذا فعل ما فعل إذن ؟!

ضغطت أزرار الأجهزة الرقمية أمامها ، تعيد ذلك المشهد ، على إحدى الشاشات ، وهى تسأله :

ـ قل لى يا عزيزى : أكنت تهوى لعبة الاختلافات فى صباك ؟!

قال فى دهشة :

ـ لعبة ماذا ؟!

أجابته فى استمتاع :

ـ الاختلافات يا رجل .. تلك اللعبة ، التى يضعون فيها أمام عينيك صورتين متشابهتين ، على أن تستخلص أية اختلافات بينهما .. هل سبق لك أن لعبتها ؟!

أجابها فى صرامة :

ـ كلاّ .. طفولتى كانت قاسية للغاية ، ولم تمنحنى وقتًا لمثل هذا العبث .

قالت ساخرة :

ـ هذا من سوء حظك .

ازداد انعقاد حاجبيه الغاضب ، ولكنها تابعت ، وهى تنقل سبابتها بين الشاشتين :

ـ ولكن الوقت لم يفت بعد ، على أية حال .. هيا .. انظر إلى (تيا) ، فى المشهد الذى أحاطها فيه (أدهم) بساعده ، ثم إليها الآن ، وأخبرنى ، أين الاختلاف الرئيسى بين المشهدين ؟! هيا يا رجل .

نقل بصره بين الشاشتين بضع لحظات ، فى محاولة للبحث عما سألته عنه ، ثم لم يلبث أن قال فى عصبية :

ـ أية اختلافات تقصدين ؟!

ابتسمت ابتسامة كبيرة جذلة ، ونفثت دخان سيجارتها فى عمق ، وهى تقول :

ـ إنه اختلاف واحد فى الواقع .

سألها فى سرعة :

ـ وما هو ؟!

تراجعت فى مقعدها ، مجيبة :

ـ حزام ثوب (تيا) .

عاد ينقل بصره بين المشهدين فى سرعة ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ نعم .. إنها لم تعد ترتديه ، ولكن ما الذى يعنيه هذا ؟!

قالت فى سرعة :

ـ يعنى الكثير .

ثم أشارت بسبابتها ، مستطردة فى جذل عجيب :

ـ فحزامها مصنوع من المطاط الرقيق .

قالتها ، ثم عادت تطلق ضحكاتها العالية العابثة ..

وفى هذه المرة ، لم يفهم قائد قواتها ما تعنيه ..

لم يفهم أبدًا ..

* * *

٥ ـ السوار..

« مستحيل ! مستحيل أن يجازف الرئيس بنفسه ! مستحيل ! »

صرخت مستشارة الأمن القومى الأمريكية بالعبارة ، بكل ثورة الدنيا ، فى وجه مدير المخابرات ، قبل أن تتابع فى حدة :

ـ ما تقوله نوع من الجنون .. الرئيس الأمريكى هو أقوى سلطة فى أقوى دولة فى العالم ، ومن المستحيل أن نجازف بحياته ، أيًا كان الثمن .

عقد مدير المخابرات كفيه خلف ظهره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ حتى لو كان الثمن هو (أمريكا) نفسها .

قالت فى غضب :

ـ الأمور لا يمكن أن تصل إلى هذا الحد .

قال بكل الصرامة :

ـ ولم لا ؟!

حاولت أن تبحث عن جواب منطقى ، إلا أنها عجزت عن هذا ، فقالت فى عصبية :

ـ إنها لن تجرؤ .

تراجع وزير الدفاع فى صمت ، وعيناه تحملان نظرة شك كبيرة فقال الرئيس نفسه فى توتر :

ـ لست أدرى كيف تفكر يا مدير المخابرات !! هل تتوقع منى أن أذهب بنفسى ؛ لتسليم حقيبة من الماس ، لمندوب تلك الزعيمة الشرسة ؟!

سأله مدير المخابرات فى حزم :

ـ وما الذى يمكن أن تفعله بك ؟!

هتف الرئيس فى حدة :

ـ كل ما يمكنها .

عاد مدير المخابرات يقول :

ـ ما الذى يمكن أن تفعله بك ، أكثر مما يمكن أن تفعله ، وأنت هنا فى مكتبك ؟!

اتسعت عينا الرئيس فى ارتياع ، وتراجع فى مقعده ،

بوجه شاحب ممتقع، وهو ينقل بصره بين وجوه الجميع، فتابع مدير المخابرات، فى حزم صارم:

- تلك الغامضة تمتلك أقوى سلاح فى الوجود .. مدفع ليزر فضائى رهيب، يمكنها، بضغطة زر واحدة، أن تسحق به البيت الأبيض سحقًا، بكل ما فيه، ومن فيه، كما قالت بنفسها، وكما نعلم كلنا، ولو أنها ترغب فى قتل الرئيس، لما ترددت لحظة فى فعل هذا، فلماذا تبذل كل هذا الجهد، وتصرّ على مطلب عسير كهذا، فقط لتظفر به ؟!

سألته مستشارة الأمن القومى فى عصبية:

- لماذا تصرّ على أن يقوم الرئيس نفسه بالعملية إذن ؟!

أجابها فى سرعة:

- لإثبات القوة والسيطرة، والقدرة على إدارة الأمور، وفقًا لهواها الشخصى.

هتف وزير الدفاع:

- فقط ؟!

التفت إليه مدير المخابرات، قائلاً فى صرامة:

- أيبدو لك هذا أمرًا بسيطًا ؟!

لم ينبس الرجل ببنت شفة، وتراجع فى صمت، فى حين قال الرئيس نفسه فى حدة:

- لن أفعل هذا، مهما كانت الأسباب.

سأله مدير المخابرات:

- ومهما كانت النتائج ؟!

أجابه الرئيس فى عناد:

- ومهما كانت النتائج.

ثم استطرد فى حدة:

- ماذا لو أنها تسعى لاختطافى وإثبات قوتها للعالم كله، بناء على هذا ؟!

انعقد حاجبا مدير المخابرات فى شدة، مع هذا الاحتمال الجديد، فقالت مستشارة الأمن القومى فى شىء من الشماتة:

- ألا يبدو لك هذا ممكنًا ؟!

غمغم الرجل فى حزم:

- بلى.

وصمت بضع لحظات ، قبل أن يقول فى اهتمام قلق :

ـ ولكن تلك الحقيرة تصرّ على أن يقوم الرئيس شخصياً بعملية التسليم .

ران على الحجرة صمت رهيب ، بعد قوله هذا ، وبدا وكأن الكل يفكر فى عمق ، بحثاً عن حل ، للخروج من هذا المأزق ..

ولقد طال صمتهم هذه المرة ..

وطال ..

وطال ..

ثم فجأة ، قطعت مستشارة الأمن القومى ذلك الصمت ، وهى تقول فى حزم :

ـ لابد أن يذهب الرئيس إذن ، لإتمام الصفقة .

انتفض الرئيس الأمريكى على مقعده ، هاتفاً بكل استنكار الدنيا :

ـ ماذا ؟!

وفى غضب هادر ، هتف وزير الدفاع :

ـ كيف تجرئين ..

قاطعه مدير المخابرات ، وهو يشير إليه ، قائلاً فى حزم :

ـ مهلاً .. أظننى أفهم ما ترمى إليه المستشارة .

ثم اختطف ورقة من مكتب الرئيس ، ووضعها على زجاج المكتب ، وخطّ فوقها بقلمه بضع كلمات ، مال الجميع برءوسهم لمطالعتها ، وابتسمت مستشارة الأمن القومى ، وربما لأول مرة ، منذ بدأت هذه الأحداث ، وهى تقول فى ارتياح :

ـ بالضبط .

أما وزير الدفاع ، فهتف :

ـ وهل تعتقد أن ..

أشار إليه مدير المخابرات إشارة صارمة بالصمت ، ثم أشار إلى ما حوله ، واعتدل يغمز بعينه ، قائلاً :

ـ يبدو أنه ليس لدينا خيار بالفعل .. لابد أن يذهب الرئيس شخصياً .

همهم الرئيس بكلمات غير مفهومة ، فأومأ له مدير المخابرات برأسه ، وقال ، وهو يتجه إلى الخارج :

ـ سأتولى القيام بكل ما يلزم للتنفيذ .

هتفت به مستشارة الأمن القومي :

ـ وبمنتهى الدقة .

أشار بإبهامه إيجابا ، وهو يغادر الحجرة ، ولم يكد يغلق بابها خلفه ، حتى أشار إلى أحد رجاله ، الذين ينتظرون خارج مكتب الرئيس ، وهمس فى صرامة :

ـ استدع فريقًا من الخبراء فورًا .. أريد إعادة تأمين مكتب الرئيس من الصفر ، وفحص كل سنتيمتر فيه ، للتيقن من عدم وجود أجهزة مراقبة أو تنصت ، واطلب منهم إقامة جدار من الحماية الإليكترونية ، يحيط بمكتب الرئيس ، وحجرة الاجتماعات الرئيسية .. أريد تأمينا شاملا مضمونًا .. هل تفهم ؟

أجابه الرجل فى حزم :

ـ سيتم تنفيذ أوامرك فورًا يا سيدى .

انطلق الرجل لتنفيذ الأمر فورًا ، فى حين أشار مدير المخابرات إلى رجل آخر من رجاله ، فتبعه فى سرعة ، وهو يسير بخطوات واسعة ، عبر ممرات البيت الأبيض ، ومدير المخابرات يقول :

ـ اسمعنى جيدًا يا رجل .. أظننى قد التقطت طرف خيط ،

لتحديد هوية تلك الزعيمة الغاضبة .. أريد منك أن تراجع ملف رجل المخابرات المصرى (أدهم صبرى) لدينا .. راجع كل عملية قام بها .. كل غريم واجهه .. كل منظمة تصدى لها .. راجع ملفات المخابرات الإسرائيلية ، والسوفيتية القديمة ، وملفات منظمة (سكوربيون) ، و(المافيا) ، وكل ما له علاقة به .

ثم توقف فجأة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وصمت بضع لحظات ، قبل أن يتابع فى حزم شديد :

ـ ركز انتباهك على عملية قديمة ، قام بها فى (إسبانيا) ، لمواجهة منظمة لتهريب الماس ، كانت ترأسها امرأة قاسية قوية ، تشبه إلى حد ما غريمتنا هذه (*) .

وعاد إلى صمته بضع لحظات أخرى ، قبل أن يتابع :

ـ زعيمة قاسية .. وماسات بمائة مليار دولار .. آه .. كم يبدو اليوم أشبه بالبارحة !

عقد رجل المخابرات الأمريكى حاجبيه ، وهو يقول :

ـ إننى أذكر تلك العملية تمامًا يا سيدى .. إننا نتحدث عن دونا (ماريا) ، أفعى الماس الشهيرة ؛ ولكننى أعتقد أنها قد لقيت مصرعها فيما بعد ، فى عملية أخرى ..

(*) راجع قصة (بريق الماس) ... المغامرة رقم (٧) .

قال مدير المخابرات فى صرامة :

ـ تيقن من هذا .

نطقها ، واندفع يغادر البيت الأبيض كله ، واستقل سيارته ، وهو يقول لسائقه الخاص ، فى توتر لم يستطع كتمانه :

ـ إلى (لانجلى) يا رجل .. أعمال كثيرة ينبغى إنجازها ، خلال الساعات القليلة القادمة .

لم تكد السيارة تنطلق ، حتى ارتفع رنيـن هاتفه الخلوى الخاص ، فالتقطه بحركة سريعة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلع إلى شاشته ، الخالية من أية بيانات ، وغمغم فى توتر بالغ :

ـ تُرى من هذا ، الذى يمتلك التكنولوجيا اللازمة ، لمنع مدير المخابرات المركزية الأمريكية ، من تحديد رقمه وهويته ؟!

وضغط زر الاتصال فى حذر ، وهو يضيف ، بكل قلق الدنيا :

ـ تُرى هل ...

لم يكن قد أتم تساؤله بعد ، عندمـا سمع صوتـًا حازمـًا ، منحتـه أجهزة تغيير الأصوات نبرة آليـة خاصـة ، وهـو يقول ، عبر الهاتف المحمول الصغير :

ـ ها نحن أولاء نلتقى مرة أخرى .

اتسعت عينـا مدير المخابرات الأمريكيـة عن آخرهمـا ، وهو يهتف :

ـ أنت ؟!

أجابه صاحب الصوت ، فى حزم شديد :

ـ نعم .. هو أنا .. أعلم ما تواجهونه ، وأريد أن أقدم لكم مساعدتى بشأنه .

ولم يجب مدير المخابرات بحرف واحد ..

فالواقع أن هذا الاتصال كان مفاجئـًا ..

مفاجئـًا ومذهلاً ..

إلى أقصى حد ..

* * *

شدت (نيا) ، الفتاة الصينية الحسناء قامتها فى اعتداد ، وهى تشير إلى الأجهزة الإلكترونية الرقمية الحديثة ، التـى تملأ قاعة كاملة ، والتـى تراص خلفهـا فريـق مـن العلمـاء والفنيين ، يتجاوز عدده المائة ، وهى تقول فى زهو :

ـ من هنا ، يمكننا أن ندير العالم كله ، كيفما نشاء .

التقى حاجبا (أدهم) ، وهو يدير عينيه فيما حوله ، دون أن ينبس ببنت شفة ..

فالقاعة ، التي يقف في منتصفها ، داخل تلك الغواصة الرهيبة ، كانت أكبر وأضخم مفاجأة واجهته ، ربما في حياته كلها !!

الصينية الحسناء لم تكن كاذبة ..

أو حتى مبالغة ..

ما تحويه القاعة يكفي لإدارة العالم كله بالفعل ..

ففي كل مكان ، يوجد أحدث ما ابتكرته العقول البشرية ، وأقوى ما أنتجته التكنولوجيا المعاصرة ، في كل المجالات ..

أجهزة رصد ..

ومراقبة ..

واتصالات ..

وتحكُّم في الأقمار الصناعية ..

أجهزة تكفي للسيطرة على كل شبكات الاتصالات ، والإنترنت ، وحتى شبكات الإذاعة والتليفزيون ..

وما يراه أمامه ، على عشرات الشاشات ، المنتشرة في المكان ، كان يعني أن السيطرة تامة ..

وقوية ..

إلى أقصى حد ..

وفي اهتمام ، لم يحاول كتمانه ، تساءل (أدهم) :

ـ كيف فعلتم كل هذا ؟!

ابتسمت الصينية الحسناء ، وهي تجيب :

ـ لست أدري بالتحديد كيف تم هذا ، ولكن كل ما أعرفه هو أن زعيمتنا عبقرية للغاية .. وقوية إلى حد مخيف ، ولديها شبكة اتصالات واسعة ، مع العديد من قادة العالم ، العسكريين والسياسيين ، وأنها تحصل على تمويل من عشرات الجهات ، التي أولتها ثقتها ، ومنحتها رعايتها ، وساعدتها على أن تشن حربها .

قال في شيء من السخرية :

ـ حربها الماضية ؟!

هزت رأسها نفيًا ، وهي تجيب بنفس الابتسامة :

ـ بل حربها السابقة ..

أطلّ تساؤل حذر من عينيه ، فتابعت فى زهو واضح :

ـ الحرب التى حطمت بوساطتها منافسيها ، واستولت منهم على مصادر قوتهم واتصالاتهم .

تساءل :

ـ مثل من ؟!

انفرجت شفتاها ؛ لتقول شيئاً ما ، ثم لم تلبث أن عقدت حاجبيها فى صرامة ، وهى تقول :

ـ ليس من صلاحيتى أن أجيب هذا السؤال .

عقد ساعديه أمام صدره ، وهو يقول فى سخرية :

ـ من يملك هذه الصلاحية إذن ؟!

تطلّعت إلى عينيه مباشرة ، وهى تجيب فى تحدّ :

ـ هى .

سألها فى سرعة :

ـ من هى ؟!

أجابته بنفس السرعة :

ـ الزعيمة .

ظلّ يتطلّع إلى عينيها المتحديتين بضع لحظات ، قبل أن يدير عينيه مرة أخرى فيما حوله ، قائلاً :

ـ بالطبع .. الزعيمة التى تملك كل هذا ، وتسعى ، كما سعى كل مجانين التاريخ قبلها ، للسيطرة على العالم .

قالت (تانيا) فى تحدّ :

ـ وأظنها ستنجح ، فيما فشل فيه الكل قبلها ، عبر التاريخ .. وعبر الجغرافيا أيضاً .

قال ساخراً :

ـ الكل تصوّر هذا ، وتصوّر أنه سيجلس على قمة العالم ، وسيحفر اسمه فى سجل التاريخ ، ولكن الشىء الوحيد الذى نجحوا فيه جميعاً ، هو أن يضعوا أنفسهم وسط قمامته فحسب .

قالت متحدية :

ـ الأمر هذه المرة سيختلف .

هزّ كتفيه ، قائلاً فى سخرية ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره :

ـ من يدرى ؟!

قالت (تيا) ، بمنتهى التحدى :

ـ نعم .. من يدرى ..

« انظر ما يفعله .. »

نطقت الزعيمة الغامضة العبارة ، فى هدوء أقرب إلى الجذل ، وهى تنفث دخان سيجارتها ، وتشير إلى إحدى شاشات المراقبة ، فمال قائد قواتها برأسه نحو الشاشة ، متسائلاً فى اهتمام :

ـ وما الذى يفعله ؟!

مالت نحو الشاشة أكثر ، وهى تقول :

ـ انظر جيدًا .. لقد وضع كفيه خلف ظهره ، ليدس حزام (تيا) المطاطى الرقيق ، بين معصمه ، وذلك السوار الأمنى الإليكترونى المحيط به .

سألها فى حيرة :

ـ ولماذا يفعل هذا ؟!

أطلقت ضحكة ساخرة ، قائلة :

ـ ويدهشك أننى أطالبك بعدم التفكير ؟!

انعقد حاجباه فى غضب ، وهو يعتدل ، قائلاً :

ـ يمكننى أن آمر رجالى بمهاجمته فورًا ، و...

قاطعته ، ساخرة :

ـ مهاجمته ؟! أهذا كل ما يدور بخلدك ؟! أن تهاجمه ؟!

قال فى عصبية :

ـ المفترض أننى مقاتل ، فما الذى ينبغى أن أفعله ؟!

أشارت بيدها ، قائلة فى حزم :

ـ أن تفهمه .

ثم نفثت دخان سيجارتها ، قبل أن تتابع :

ـ المطاط مادة عازلة للكهرباء ، و(أدهم صبرى) يعرف هذه المعلومة البسيطة ، وبوضع حزام (تيا) المطاطى ، بين معصمه وسوارنا الأمنى الإليكترونى ، يستطيع منع الصدمة الكهربية من بلوغ جسده ، إذا ماتجاوز الحدود المسموح بها ، أو حاول نزع السوار .

بدا عليه الانزعاج ، وهو يقول :

ـ إذن فهو يسعى لإبطال مفعول سوارنا .

هزت رأسها نفيًا ، واسترخت فى مقعدها ، وهى تقول بابتسامة كبيرة ، توحى باستمتاعها الشديد :

ـ كلا .. إنه يسعى لتجاوز الحدود المسموح بها .

لم يصدق قائد قواتها أذنيه ، وهو يهتف بها :

ـ وتتعاملين مع هذا الأمر بكل البساطة .

أشارت بسبابتها ، قائلة :

ـ بل وباستمتاع أيضًا .

قالتها ، وعادت تطلق ضحكتها العابثة الطويلة التى احتقن معها وجهه فى شدة ، قبل أن يقول بصوت مختنق ، من فرط التوتر :

ـ سيدتى .. إنك تجازفين بمستقبلنا كله ، من أجل قليل من العـ ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، خشية أن يتجاوز حدوده ، ولكنها نفثت دخان سيجارتها فى بطء ، وقالت :

ـ قليل من العبث .. أليس كذلك ؟!

ثم اعتدلت بحركة حادة ، وهى تضيف :

ـ هذا ما يبدو لك .

وانعقد حاجباها ، فى صرامة مخيفة ، مع استطرادتها :

ـ لأنك لا تملك عقلاً كعقلى .

قال فى صرامة :

ـ وأنت أيضًا يا سيدتى ، لا تملكين عقلاً كعقلى .. عقل مقاتل محترف ، خاض عدة حروب ، بالغة العنف والشراسة .. مقاتل حمل سلاحه فى الغابات والأحراش الكثيفة ، وفى قلب الصحارى ، وتحت الجليد المنهمر .. مقاتل يقود جيشًا من المحترفين ، القادرين على التصدى لقوة ضاربة ، والانتصار عليها ، فى أى ميدان كان .

عادت تتراجع فى مقعدها ، وتنفث دخان سيجارتها الحمراء ، قائلة بكل هدوء واسترخاء الدنيا :

ـ أعلم كل هذا ، ولقد استأجرتك ورجالك ؛ لأنكم تجيدون كل هذه المهارات .

أجاب بمنتهى الحزم :

- أقل رجل فى جيشى ، يجيد التصويب ، على أدق هدف ممكن ، من أبعد مسافة ممكنة ، ويستخدم كل أنواع الأسلحة ، ويجيد قيادة طائرات الهليكوبتر ، والقفز بالمظلات ، وكل أنواع القتال اليدوى .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يضيف :

- وبالمناسبة .. أنت لم تستأجرينا ياسيدتى ، ولكنك اشتريت خدماتنا فحسب .

اعتدلت بنفس الحركة الحادة ، قائلة :

- وولاءكم أيضًا يا رجل .

ثم أشارت إلى رأسها ، مضيفة فى سخرية :

- ولكن ليس عقولكم .

احتقن وجهه ، وهمّ بقول شىء ما ، ولكنها أشارت إليه فى صرامة ، وهى تقول :

- صمتًا .. أريد متابعة الموقف .

وعادت تدير وجهها إلى شاشات المراقبة ، مضيفة :

- إنك تفسد علىّ متعة المشاهدة .

احتقن وجهه أكثر ، ولكنه لاذ بالصمت للتو ، ويده تتحسس مقبض مسدسه فى عصبية ، وعيناه تتابعان (أدهم) على الشاشة ، وهو يقول للفاتنة (تيا) على الشاشة :

- تُرى كم تكلف إنشاء كل هذا ؟!

هزت (تيا) كتفيها ، قائلة :

- وفيم يهمك هذا ؟!

أجابها فى حزم مفاجئ :

- أريد أن أعرف على الأقل ، كم تبلغ تكلفة المكان .

ثم اندفع نحو أقرب الأجهزة إليه ، مستطردًا :

- الذى سأدمره الآن .

جذب قائد القوات مسدسه بحركة غريزية ، وهو يهتف :

- أرأيت ما حدث ؟!

ولكنها ظلت هادئة كالثلج ، وهى تضغط زرًا صغيرًا فى مقعدها ، قائلة فى جذل :

- أرأيت أنت ؟!

قبل حتى أن يكتمل قولها ، رأى قائد القوات (أدهم) على الشاشة ، وقد انتفض جسده بمنتهى العنف ، وكأنما تلقى أعنف صدمة كهربية فى حياته ، قبل أن يسقط أرضًا ، على قيد سنتيمترات قليلة من (تيا) ، فى نفس اللحظة التى أطلقت فيها الزعيمة ضحكة ظافرة عالية ..

ضحكة انقبض معها قلب قائد القوات ، وابتسم لها الشيطان ..

فى ظفر .

* * *



٦ ـ تحت السيطرة ..

بدا مدير المخابرات العامة المصرية شديد الاهتمام ، وهو يراجع الخريطة الكبيرة التى قدمها له رجاله ، بعد بحث طويل ، وأشار بيده إلى تلك الجزر التى أحيطت بدوائر حمراء ، قائلاً :

ـ هل تمت مراجعة كل البيانات ؟!

أجابه معاونه الأول :

ـ وبمنتهى الدقة ياسيدى ، ولكن كل تحرياتنا ومراجعاتنا لم تسفر عن شىء .. الأمريكيون أيضًا فعلوا ما فعلناه ، دون أن يتوصلوا إلى شىء ، وحساباتهم اتفقت مع حساباتنا ، فى أنه لو نفد وقود المقاتلة ، فستهوى فى المحيط ، على مسافة هائلة من كل هذه الجزر ، وحتى لو نجا سيادة العميد (أدهم) من السقوط ، فسيكون عليه أن يسبح لعدة ساعات ، قبل أن يبلغ إحداها .

قال المدير فى حزم :

ـ (ن ـ ١) لن يعجز عن هذا .

وافقه المعاون بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ ولكن كل الوسائل لم ترصده للأسف ياسيدى .

التقى حاجبا مدير المخابرات المصرية ، وهو يتراجع فى مقعده ، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، ويغرق فى تفكير عميق ، احترمه معاونه تماماً ، فلم ينبس ببنت شفة ، حتى قال المدير :

ـ من أين جاءت المقاتلة إذن ؟!

هزّ المعاون رأسه ، قائلاً :

ـ مازال هذا الأمر لغزاً ، حتى هذه اللحظة .

قال المدير فى بطء ، وهو يعاود التفكير فى عمق :

ـ كل لغز له حل منطقى ، وعالمنا لايعترف بالغموض التام ، أو بالغيبيات وما وراء الطبيعيات ، لذا فليس أمامنا سوى البحث عن تفسير منطقى ، مهما بلغت غرابته .

غمغم المعاون :

ـ نعم .. مبدأ (هولمز) .

أشار المدير بيده ، قائلاً :

ـ بالضبط .

ثم اعتدل ، مستطرداً فى حزم :

ـ ففى رواياته ، يقول (آرثر كونان دويل)(*) ، على لسان بطله الشهير (شيرلوك هولمز) ، كلما واجه لغزاً ما ، إنه لو استبعدنا المستحيلات ، فما يتبقى دوماً هو الحقيقة ، مهما بلغت غرابتها .

ونهض من خلف مكتبه ، متابعاً :

ـ لابد أن نضع كل الحقائق أمامنا إذن ، وأن نعيد دراستها وترتيبها ، ثم نتوصّل منها إلى تصوّر لما حدث .. تصوّر منطقى ، مهما بلغت غرابته .

سأله المعاون فى اهتمام :

ـ هل أطلب عقد اجتماع عاجل ؟!

أجابه المدير فى حزم :

ـ بالتأكيد ؛ فأنت تعرف مبدأنا هنا .. فريق من العقول أفضل حتماً من عقل واحد ، مهما بلغت براعته .

(*) سير (آرثر كونان دويل) (١٨٥٩ ـ ١٩٣٠م) : مؤلف إنجليزى ، من أشهر كتاب القصة البوليسية العالميين ، ومبتكر أشهر شخصية بوليسية فى التاريخ (شيرلوك هولمز) ، وله كتابات رائعة فى أدب الخيال العلمى ، منها (النطاق السام) ، و(العالم المفقود) ، وبعض الروايات التاريخية ، والتى حظى بنجاح رائع ، جعله يحصل على لقب (سير) ، عام ١٩٠٠م ، وبعدها اهتم بالكتابة عن عالم تحضير الأرواح .

قال المعاون فى حماسة :

ـ سأدعو لعقد الاجتماع على الفور يا سيدى .

تركه المدير يغادر للقيام بواجبه ، فى حين ألقى هو نظرة على ساعة يده ، قبل أن يزفر فى توتر ، قائلاً :

ـ رباه ! الوقت يمضى بسرعة مخيفة ، والسؤال مازال يشتعل فى كل العقول .. أين (ن ـ ١) ؟! أين ؟!

وكان المدير على حق تماماً .. نسبياً ..

فالسؤال الذى يشغل الجميع ، باستثناء الزعيمة الغامضة بالطبع ، هو أين (أدهم صبرى) ؟!

أما السؤال الحقيقى ، فهو : ما مصير (أدهم) الآن ، بعد أن وقع تحت السيطرة الكاملة ، لتلك الزعيمة الغامضة ؟!

أما زال على قيد الحياة ، أم .... ؟!

هذا هو السؤال الحقيقى ..

والمخيف ..

جداً ..

* * *

« المكان كله كان تحت السيطرة يا سيدتى .. »

نطق كبير خبراء الفحص العبارة ، فى توتر بالغ ، وهو يقدم تقريره إلى مستشارة الأمن القومى الأمريكية ، التى اتسعت عيناها عن آخرهما ، وعجز لسانها عن النطق ، والرجل يتابع :

ـ بعضهم زرع مجموعة ضخمة ، من أجهزة المراقبة والتنصت ، فى أرجاء البيت الأبيض كله ، بحيث أصبح المكان كله تحت سيطرته التامة .

هزت مستشارة الأمن رأسها فى قوة ، قبل أن تستطيع النطق ، وتهتف فى غضب :

ـ ولكن هذا مستحيل ! المكان كله يتم فحصه أسبوعياً ، وكل شخص يدخله ، يحمل تصريحاً خاصاً ، وهناك طاقم أمنى خاص جداً ، يقوده (ألفريد) ، وهو رجل مخابرات سابق ، و ...

بترت عبارتها بغتة ، وهى تتلفت حولها ، هاتفة :

ـ أين (ألفريد) ؟!

أجابها أحد رجال المخابرات :

ـ لم نعثر له على أثر .. لقد انصرف ، عندما بدأنا فى فحص المكان ، ولم يره أحد ، حتى هذه اللحظة .

هتفت :

ـ انصرف ؟!

ثم انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تضيف :

ـ الوغد ؟! لقد خاننا .

هتف رجل المخابرات فى ذهول :

ـ (ألفريد) ؟! خاننا ؟!

صاحت به :

ـ ألديك تفسير آخر ؟!

اتسعت عينا الرجل ، فى انزعاج شديد ، وهو يعتدل فى توتر بالغ ، قبل أن يهزّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ كلاّ يا سيدتى .. كلاّ .

ثم خفض عينيه ، مضيفًا :

ـ للأسف .

حملت كل لمحة من لمحات وجهها غضب الدنيا كله ، وهى تقول لكبير الخبراء :

ـ فليكن .. سنتجاوز الموقف الآن ، وسنعمل على ألا يتم

تكراره مستقبلاً .. أريد تأمين المكـان تمامًا .. هل تفهم ؟! لا أريد أن يعرف الجان أنفسهم ما يحدث هنا .

غمغم الخبير :

ـ حدود قدراتى لا تتجاوز البشر يا سيدتى .

صرخت فيه غاضبة :

ـ لا أريد محاورات متحذلقة .

ثم ابتعدت عنه ، قبل أن يجيب بحرف واحد ، والتقطت هاتفها الخلوى مـن جيبها ، وضغطت أزراره فى سرعة ، قبل أن ترفعه إلى أذنها ، وتستمع إليه فى انتباه لبضع لحظات ، ثم تهتف فى غضب هادر :

ـ يا للسخافة ! ليس هذا وقـت إغلاق الهـاتف ، يا مدير المخابرات ! كل دقيقة لها ثمنها .. بل كل ثانية .

فى نفس اللحظة ، التى نطقت فيها عبارتها الأخيرة ، كان مدير المخابرات المركزية الأمريكية يجلس فى مكتبه الخـاص ، وقد أغلق بابه فى إحكام ، ووضع أمامـه جهاز اتصال فيديويًا ، يبث على شاشته صورة مستر (x) ، زعيم منظمـة (x) ، والذى أحاط وجهه بظلام غامض كالمعتاد ، وهو يقـول بصوت ، أبدلت أجهزة خاصة نبراته ، وإن لم تخف حزمه وتوتره :

- تلك الحقيرة خدعتنى، قبل أن تخدعكم، واستطاعت أن تتوصل إلى وكرى السرى، الذى عجزتم أنتم عن كشفه، وهاجمته، وكادت تظفر بى، لولا أننى كنت أحتفظ بأسلوب فرار سرى، لايعلم به سواى.

سأله مدير المخابرات:

- وهل تسعى للانتقام منها ؟!

أجابه مستر (x) فى حزم:

- لن أنكر هذا؛ فكل ذرة فى كيانى تحلم بالانتقام منها، وكسر أنفها، ورؤيتها وهى تتجرّع مرارة الهزيمة واليأس.

قال مدير المخابرات فى صرامة:

- حتى تستعيد مكانتك .. أليس كذلك ؟!

قال مستر (x):

- وحتى تستعيدون أنتم مكانتكم أيضًا.

تراجع مدير المخابرات الأمريكى فى مقعده، وهو يفرك ذقنه بسبابته، ويتطلع فى صمت إلى صورة مستر (x)، الغارقة فى الظلام، على شاشة جهاز الاتصال الفيديوى، فتابع هذا الأخير فى حزم:

- أظنها صفقة رابحة للطرفين.

قال مدير المخابرات:

- أنت ستريح منها بالتأكيد، وستستعيد منظمتك، وقوتك، وتصبح مرة أخرى زعيمًا، لأقوى منظمة جاسوسية خاصة فى العالم.

قال مستر (x) فى حزم:

- منظّمتى كانت تسعى للحصول على الأسرار والمعلومات، من كل مكان فى العالم، وبيعها لمن يدفع أكثر، ولقد سبق لنا أن تعاونا معكم، وأعطيناكم بعض الأسرار المهمة، والخطيرة جدًا.

قال مدير المخابرات، فى سخرية عصبية:

- لم تعطونا إياها، ولكنكم بعتموها لنا .. وبمبلغ ذى ستة أصفار حسبما أذكر.

قال مستر (x) فى سرعة:

- وتلك الحقيرة تكسر أنوفكم، وتفرض سيطرتها على إرادتكم، وتحصل على رقم ذى أحد عشر صفرًا .. أليس كذلك ؟!

صمت مدير المخابرات بضع لحظات ، قبل أن يميل نحو شاشة الاتصال ، ويسأل فى اهتمام :

ـ وماذا يمكنك أن تفعل ، فى وضعك الحالى ، مما نعجز نحن عن فعله ، بكل إمكانياتنا هذه ؟!

أجابه مستر (x) :

ـ أستطيع أن أغوص فى عالم الجاسوسية السفلى .

قال مدير المخابرات فى حزم :

ـ نحن أيضًا يمكننا هذا .

أجابه فى سرعة :

ـ ليس بقدر ما يمكننى .

شملهما الصمت بضع لحظات ، ومدير المخابرات الأمريكي يواصل التطلع إلى شاشة الاتصال ، وكأنما يحاول اختراق ذلك الظلام ، الذى يحيط بوجه مستر (x) ، وسبر أغواره ، ثم لم يلبث أن تراجع ، قائلاً :

ـ فليكن .. سأقبل الصفقة .

ثم استدرك فى صرامة :

ـ ولكنك لن تحصل على أى تعاون منا إلا لو منحتنا نتائج إيجابية .

قال مستر (x) فى سرعة وحزم :

ـ اتفقنا .

سأله مدير المخابرات فى اهتمام :

ـ والآن ، ما الذى يمكنك أن تقدمه لنا ؟!

أجابه مستر (x) فى هدوء حاسم :

ـ يمكننى أن أؤكد أن تلك الزعيمة الغامضة ليست (لورا كيلرمان) ، كما تحاول أن توحى ، وهى أيضًا ليست شخصية معروفة ، فى عالم الجاسوسية ، أو عالم المخابرات السابق .

قال مدير المخابرات فى توتر :

ـ أتعتبر هذه معلومة خطيرة ؟!

أجابه مستر (x) فى حزم :

ـ الخطوة الأولى ، للتعامل مع خصمك ، هى أن تعرف من هو .

قال مدير المخابرات ، وهو يلوّح بيده :

ـ إنك لم تخبرنا من هى ، ولكنك أخبرتنا فقط من يمكن ألا تكونه .

قال مستر (x) :

ـ لو تركتنى أكمل حديثى ، لأدركت أن لدى المزيد .

قال مدير المخابرات فى اهتمام :

ـ إليّ به .

مال مستر (x) إلى الأمام ، ولكن وجهه ظل فى دائرة الظل ، وهو يقول :

ـ قديمًا ، واجه (أدهم صبرى) امرأة قاسية قوية ، كانت تتزعم عصابة لتهريب الماس فى (إسبانيا) .

انعقد حاجبا مدير المخابرات ، وهو يقول فى حنق :

ـ أتقصد دونا (ماريا) .. لو أن هذا ما تعنيه ، فاسمح لى أن أخبرك أنك متأخر خطوة يا هذا ، فدونا (ماريا) هذه لقيت مصرعها فيما بعد ، فى مواجهة أخرى مع (أدهم) نفسه ، فى (ستوكهولم)(*) ..

قال مستر (x) فى حزم :

ـ أعرف هذا جيدًا ، ولقد شاهدت جثتها بنفسى آنذاك ، وكانت إلى جوارى ابنتها .

(*) راجع قصة (حلفاء الشر) ... المغامرة رقم (١٢)

انعقد حاجبا مدير المخابرات أكثر ، وهو يقول فى توتر :

ـ ابنتها .

أجابه مستر (x) ، فى لهجة واثقة ، وصوت قوى :

ـ نعم .. ابنتها الوحيدة (ماريانا) ، التى ورثت عنها كل قوتها ، وقسوتها ، وشراستها ، وجمالها الذى بلا قلب .. ابنتها التى أقسمت ، أمام جثة أمها ، منذ بضع سنوات ، على الانتقام ممن تسبب فى مصرعها ، ومن العالم كله ، الذى سمح له بهذا .

اتسعت عينا مدير المخابرات ، وهو يتمتم :

ـ رباه ! (ماريانا) .. ابنة دونا (ماريا) ؟!

أجابه مستر (x) :

ـ دونا (ماريانا) يا رجل ، فالابنة الفاتنة ورثت عن أمها امبراطورية الماس فى (إسبانيا) أيضًا ، و ...

وعاد يميل نحو الشاشة ، مضيفًا :

ـ وتسعى للفوز بإمبراطورية الماس العالمية أيضًا .

وازداد انعقاد حاجبى مدير المخابرات الأمريكى أكثر وأكثر ..

وتراجع في مقعده ببطء ..

بمنتهى البطء ..

فالمعلومة ، التي أخبره بها مستر (x) ، كانت كافية لتفسير أمور كثيرة ..

كثيرة جداً ..

* * *

جذب قائد قوات الزعيمة الغامضة إبرة مدفعه الآلي القصير ، وتركها ترتد بصوت معدني رنّان ، قبل أن يشدّ قامته ، ويقول بمنتهى الصرامة :

ـ بقيت ساعة واحدة أيتها الزعيمة .

نفثت الزعيمة دخان سيجارتها ، وفي هدوء شديد ، وهي تقول :

ـ أعلم هذا .

قال بلهجة عسكرية صرفة :

ـ ولكننا نبعد عن الساحل الأمريكي أكثر من ساعتين .

أدارت عينيها إليه ، وسألته بتلك اللهجة المستهترة ، التي تستفز مشاعره دوماً :

ـ وماذا في هذا ؟!

قال بنفس اللهجة العسكرية :

ـ المفترض أن نصل في موعدنا يا سيدتي .

هزّت كتفيها ، قائلة :

ـ كلاً .. ليس من المفترض أن نفعل .

بدت عليه حيرة متردّدة ، قبل أن يقول :

ـ سيدتي .. أعلم أنك قد أعددت لكل شيء عدته ، وأنك تمتلكين عقلاً جباراً بحق ، ولكنني أتساءل ...

قاطعته في صرامة :

ـ كل شيء سيسير وفقاً للخطة .

سألها في حيرة :

ـ كيف ؟!

نفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، قبل أن تقول ، وهي تشير بيدها ، نحو خريطة ضخمة ، تملأ الجدار كله ، للولايات المتحدة الأمريكية ، بأدق تفاصيلها وتضاريسها :

ـ لقد حددنا موعد ومكان اللقاء ، عند ساحل (نورفك) ، في ولاية (فرجينيا) ، ومن المؤكد أنهم قد اتخذوا طريقهم

إلى هناك الآن ، وأن كل وسائلهم ، من الأفراد ، وحتى أقمار المراقبة الصناعية ، قد تركّزت على هذه البقعة بالتحديد .

قال ، وهو يشد قامته أكثر :

ـ هذا أمر طبيعي .. لابد أن يحموا رئيسهم ، الذي سيقوم بعملية التسليم شخصياً .

تراقصت ابتسامة ساخرة على شفتيها ، وهي تقول :

ـ الرئيس الأمريكي ؟!

بدا عليه التوتر والتردد ، وهو يقول :

ـ لقد وافقوا على قيامه بالـ ...

قاطعته في سخرية :

ـ هراء .

تراجع بحركة حادة كالمصعوق ، فانطلقت من حلقها ضحكة عابثة طويلة ، ثم أشارت بيدها ، قائلة :

ـ من الواضح أنك مازلت تجهل الكثير عن النفس البشرية يا جنرال .. ربما يتعاملون معنا بمنتهى الصدق والشرف ، عندما يتعلق الأمر بأجنبي ، مثل (أدهم صبري) ، أما عندما يتعلق الأمر بالرئيس الأمريكي نفسه ، فهم مستعدون لمواصلة الخداع ، حتى اللحظة الأخيرة .

سألها في قلق :

ـ أأنت واثقة من هذا ؟!

نفثت آخر أنفاس سيجارتها ، قبل أن تقول في حسم :

ـ تمام الثقة .

وأشارت بيدها ، بعد أن ألقت سيجارتها بعيداً ، مستطردة :

ـ لقد استدعوا البديل ، منذ ساعة واحدة .

التقى حاجباه في شدة ، وهو يتمتم :

ـ البديل ؟!

أومأت برأسها إيجاباً ، وقالت :

ـ نعم .. البديل .. شخص تم انتقاؤه بمنتهى الدقة والعناية ، بحيث يشبه كثيراً الرئيس الأمريكي ، ومن خلال بعض الخبراء ، وجراح تجميل محترف ، يتم إلغاء الفروق البسيطة بينهما ، بحيث يصبح التطابق تاماً ، إلى حد ما(*) .

(*) أسلوب البديل شائع الاستخدام ، في معظم النظم ، ذات الطابع العسكري ، منذ أيام (الحقبة) النازية ، حيث كان هناك عدة بدلاء للزعيم (أدولف هتلر) .

سألها في قلق :

ـ هل تعنين أنهم سيرسلون البديل ؛ لإتمام الصفقة ؟!؟

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت :

ـ بكل تأكيد .

انعقد حاجباه ، في تفكير عميق ، استغرق بضع لحظات ، قبل أن يتساءل في اهتمام :

ـ وكيف ستتيقن من هذا ؟!

ابتسمت ، وهي تشعل سيجارة أخرى ، قائلة :

ـ بالتكنولوجيا يا رجل .. التكنولوجيا تصنع كل شيء .

سألها في شغف :

ـ وكيف هذا ؟!

أطلقت ضحكة قصيرة ، قبل أن تنفث دخان سيجارتها ، مجيبة :

ـ هل تعلم يا عزيزي الجنرال .. أنت مقاتل محترف ، تجيد إطلاق النيران ، وإلقاء القنابل ، وخوض المعارك العنيفة ، ولكن الحروب الحديثة لم تعد تعتمد على هذا وحده ، بل أصبح اعتمادها الرئيسي على التكنولوجيا بالدرجة الأولى .

قال متحديًا :

ـ التكنولوجيا لن تطلق النار ، بأفضل مما يفعل محترف .

أطلقت ضحكة أخرى ، قائلة :

ـ ليس بالضرورة .

ثم اعتدلت ، مضيفة :

ـ ولكنها تستطيع أن تفعل ما هو أفضل ، وأكثر قوة وفعالية .

ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، لتتابع :

ـ فمن الناحية العلمية ، يستحيل أن يتطابق شخصان ، حتى ولو كانا توءمين ، فهناك دومًا اختلافات بسيطة ، مثل موضع الأنف ، والمسافة بينه وبين الفك ، أو زاوية ميل الأذنين ، وغيرها ، بل إن جانبي الوجه لا يمكن أن يتطابقا ، عند أي إنسان (*) ؛ وربما تخطئ العين البشرية التمييز بين شخص ما وبديله ، ولكن الكمبيوتر ، المزود بآلة تصوير رقمية دقيقة ، وبرنامج مقارنة ثلاثي الأبعاد ، وملف كامل عن الشخص الأصلي ، لا يمكنه أن يخطئ أبدًا .

(*) حقيقة علمية .

سألها فى اهتمام :

ـ إذن فستكشف خداعهم ، من اللحظة الأولى .

قالت فى استرخاء :

ـ حتمًا .

سألها باهتمام أكثر :

ـ وماذا سنفعل عندئذ ؟! هل نرفض إتمام الصفقة ، وننسف تمثال حريتهم ؟!

ابتسمت ابتسامة شيطانية ، وهى تقول :

ـ بل سنتم نصف الصفقة فحسب .

سألها فى حذر :

ـ ماذا تعنين ؟!

أجابته فى سرعة :

ـ سنحصل على حقيبة الماس ، ولكننا لن نلتزم بتعهداتنا .

تألقت عيناه ، على نحو وحشى عجيب ، وهو يقول :

ـ وستنسف مواقعهم المهمة ؟

أطلقت ضحكة عالية عابثة ، قبل أن تشير بيدها ، قائلة :

ـ ستنسف أشياء تسقط معها قلوبهم تحت أقدامهم ، ثم نتهمهم بالمراوغة والخداع ، مما يمنحنا الحق فى طلب تعويض جديد .

سألها بكل اللهفة :

ـ كم ؟! مائة مليار أخرى ؟!

أطلقت ضحكة عالية أخرى ، ثم قالت ، وهى تنفث دخان سيجارتها بكل العمق :

ـ بل سيكون تعويضًا باهظًا .. باهظًا أكثر مما يمكن أن تتصور يا رجل .

وتألقت عيناها ، على نحو ناقس تألق عينيه ، وهى تضيف :

ـ أو يمكن أن يتصوروه .

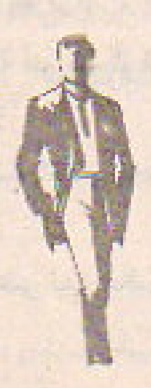
اتسعت عيناه، مع ضحكتها الثالثة، وعلى الرغم من طمعه وشراهته، شعر فى أعماقه بشىء من الشفقة على الأمريكين، الذى يواجهون امرأة مثلها ..

أو شيطانة مثلها ..

شيطانة من قلب الجحيم ..

ومن أعمق أعماقه .





٧ـ تحت الماء ..

لأكثر من ساعة كاملة، التف رجال المخابرات المصرية، حول مائدة الاجتماعات، فى مبناهم الرئيسى، فى حى (كوبرى القبة)، فى قلب (القاهرة)، يراجعون كل ما وردهم من بيانات ومعلومات، حول عملية الزعيمة الغامضة، وكل ما تم الحصول عليه بجهود فردية، أو من خلال تبادل معلوماتى أمنى، مع المخابرات الأمريكية، قبل أن يشير إليهم مديرهم، قائلاً :

ـ هذا كل ما لدينا يا رجال، وكما رأيتم، كل منطق الدنيا يؤكد أن المقاتلة، التى نسفت بطة الوقود الأمريكية، لم تنطلق من على متن أية حاملة طائرات، أو من أية جزيرة فى الجوار، وهى حتمًا ليست طائرة مائية؛ فالطائرات المائية لا تصلح لإطلاق الصواريخ، وهذا يضعنا أمام لغز كبير .

والتقط نفسًا عميقًا، قبل أن يتابع فى صرامة :

ـ من أين أتت تلك المقاتلة ؟! وإلى أين ذهبت ؟! بعد أن أنهت مهمتها القذرة ؟!

بدت الحيرة على وجوه الرجال، وراحوا يتبادلون نظرة متسائلة قلقة، قبل أن يشير أحدهم بيده، قائلاً :

ـ الماء .

التفت إليه الجميع، بنظرة يملؤها التساؤل، فتابع في اهتمام:

- ما دمنا قد استبعدنا كل جسم يابس، في المنطقة كلها، فلا يعود أمامنا سوى الماء فقط .. مياه المحيط الأطلنطي.

قال المدير:

- ولكنها ليست طائرة مائية.

قال رجل المخابرات:

- بالتأكيد.

ثم مال إلى الأمام، مستطردًا:

- ولكنها انطلقت من على متن ممر إقلاع متحرك، تمامًا مثل حاملة طائرات، ولكنه لا يسبح على السطح، بل هناك.

وصمت لحظة، ثم أضاف:

- تحت سطح الماء.

انعقد حاجبا المدير، وهو يتراجع في مقعده ببطء، في حين بدت الدهشة على وجوه الجميع، فيما عدا المعاون الأول لمدير المخابرات، والذي بدا شديد الحماسة، وهو يقول:

- ولِمَ لا ؟!

استدارت العيون كلها إليه هذه المرة، فتابع بنفس الحماسة:

- نظرية (هولمز) أيها السادة .. لو استبعدنا المستحيلات، فكل ما يتبقى أمامنا هو الحقيقة، مهما بلغت غرابتها .. ونحن أمام لغز غامض، يتحول إلى أمر مفهوم، لو افترضنا وجود حاملة طائرات خاصة، يمكنها أن تغوص في الأعماق، مثل أية غواصة كبيرة.

أشار المدير بيده، قائلاً في حزم:

- وهذا ليس أمرًا خياليًا، فالأمريكيون يسعون منذ فترة، لإنتاج شيء كهذا(*) ..

اندفع أحد رجال المخابرات، يقول:

- وربما توصلت تلك الزعيمة إلى هذا، قبل أن يبلغوه هم.

قال المدير، وهو يفكّر في عمق:

- أو أنها حصلت على تصميماتهم، دون أن يدركوا هذا، وكل ما يحيط بها يؤيد هذا الأمر، فهي تسبقهم دومًا بخطوة ما.

(*) حقيقة.

قال المعاون ، دون أن تفارقه حماسته :

ـ وهذا يفسّر ظهور تلك المقاتلة ، واختفاءها ، واختفاء المقاتلة الأمريكية الحديثة أيضًا ، دون أن تترك خلفها أدنى أثر .

قال أحد رجال المخابرات فى اهتمام :

ـ ولكنه لا يفسّر فشل الأمريكيين فى العثور على تلك الغوّاصة حاملة الطائرات ، لو أنها موجودة بالفعل .

هزّ المدير رأسه ، قائلاً :

ـ هذا أيسر كثيرًا ، فالعلم الحديث ابتكر عشرات الوسائل ، لإخفاء الأجسام ، ومنع التقاطها أو رصدها ، بوساطة وسائل الرصد التقليدية ، ولقد ابتكر العلماء ، فى الآونة الأخيرة أنواعًا من الطلاء المعدنى ، بعد تغيير الخواص الطبيعية والمغنطيسية لبعض المواد والعناصر ، بحيث أصبح الطلاء مضادًا لموجات الرادار ، والسونار ، وحتى موجات الأشعة دون الحمراء (*) ..

بدا من الواضح أن الجميع قد اقتنع بهذا التفسير ، وهم يتبادلون نظرة واثقة ، جعلت المدير يقول فى حزم :

ـ هى غوّاصة إذن .

(*) حقيقة علمية .

تساءل معاونه فى اهتمام :

ـ هل نبلغ الأمريكيين ؟!

ألقى المدير نظرة على ساعته ، قائلاً :

ـ وعلى الفور ، فلكل دقيقة ثمنها .

أسرع المعاون لتنفيذ الأمر ، فى حين تساءل رجل مخابرات آخر ، فى قلق شديد :

ـ أيعنى هذا أن سيادة العميد (أدهم) ، مازال على قيد الحياة ؟!

صمت المدير بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ فلنأمل هذا ، من أجل صالحه .

وعاد إلى صمته لحظة أخرى ، ثم تابع بمنتهى الحزم :

ـ ومن أجل (مصر) ؟!

وكان هذا فصل الختام ..

بالنسبة لهذا الأمر ، على الأقل ..

أما بالنسبة لـ (أدهم) نفسه ، فما زال التساؤل ساريًا ..

تُرى ماذا يخبىء له القدر هناك ؟!

تحت مياه المحيط ؟!

★ ★ ★

« عشر دقائق فحسب ، على ساعة الصفر .. »

نطق رجل مخابرات أمريكى العبارة ، فى حزم شديد ، داخل سيارة (فان) كبيرة ، تقف على مسافة ثلاثين متراً ، من منطقة اللقاء المتفق عليها ، على شاطئ (نورفك) ، بولاية (فرجينيا) ، فانعقد حاجبا مستشارة الأمن القومى ، التى تجلس إلى جواره ، وهى تتمتم :

ـ أظن أنه ينبغى أن يتحرك الرئيس الآن .

ثم التفتت إلى بديل الرئيس الأمريكى ، تسأله فى صرامة :

ـ أأنت مستعد ؟!

ازدرد الرجل لعابه ، وهو يقول :

ـ تمام الاستعداد .

أشارت بيدها ، وهى تناوله حقيبة الماس ، قائلة فى عصبية :

ـ هيا إذن ..

التقط الرجل الحقيبة ، ذات المائة مليار دولار ، وغمغم ، وهو يغادر السيارة فى توتر :

ـ إنها ثقيلة للغاية .

أجابته مستشارة الأمن فى حدة :

ـ وماذا كنت تتوقَّع ؟ إنها تحوى ماساً بمائة مليار دولار .

قال الرجل ، قبل أن يغلق باب السيارة خلفه :

ـ لا عجب فى أن تفعل تلك الزعيمة كل شىء ممكن ؛ للحصول عليها .

مطَّت المستشارة شفتيها فى ازدراء ، وراقبته وهو يتجه نحو منطقة اللقاء ليضع لحظات ، قبل أن تقول فى مقت :

ـ ذكرنى أن أطلق النار على رأسه ، عندما تنتهى عملية التسليم القذرة هذه .

أجابها رجل المخابرات فى سرعة واقتضاب :

ـ أفعل .

ثم استدرك فى صرامة :

ـ لو لم يفعلوا هم أولاً .

التفتت إليه بحركة حادة ، هاتفة فى استنكار :

ـ أتظنهم يجرءون على فعلها ؟!

سألها فى توتر :

ـ فعل ماذا ؟!

هتفت :

ـ قتل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

هزّ رأسه ، قائلاً :

ـ ربما لايقتلون الرئيس ، ولكنهم سيقتلون هذا حتمًا .

قالت فى غضب :

ـ لو أنهم عرفوا أنه ليس الرئيس .

قال فى صرامة أدهشتها :

ـ لو أننا فى موضعهم لعرفنا .

بدا لها قوله منطقيًا إلى حد مستفز ، فقالت فى حدة :

ـ اصمت .

غمغم رجل المخابرات الأمريكى فى سخط :

ـ فليكن ..

كانت تشعر بتوتر الدنيا كله يعربد فى أعماقها ، وهى تراقب بديل الرئيس الأمريكى ، الذى واصل طريقه نحو نقطة اللقاء على الشاطئ ، وراحت تتساءل ، ولأول مرة ، عما سيكون عليه رد فعل رجال الزعيمة ، إذا ما كشفوا الأمر ، و ...

وفجأة ، ارتفع رنين هاتفها المحمول ، فانتفض جسدها فى عنف غريزى ، وهى تهتف :

ـ يا للسخافة !

ثم التقطت الهاتف بحركة عصبية ، وألقت نظرة على شاشته ، وهى تقول :

ـ لابيانات .

التقى حاجبا رجل المخابرات الأمريكى ، وهو يتطلّع إلى شاشة هاتفها بدوره ، مغمغمًا :

ـ ولكن هذا غير ممكن ، إلا إذا ..

لم يتمّ عبارته ، وهو يتابعها فى اهتمام وانتباه ، عندما وضعت الهاتف على أذنها ، قائلة :

ـ من المتحدث ؟!

التفتت إليه بحركة حادة ، هاتفة فى استنكار :

ـ أتظنهم يجرءون على فعلها ؟!

سألها فى توتر :

ـ فعل ماذا ؟!

هتفت :

ـ قتل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

هزّ رأسه ، قائلاً :

ـ ربما لايقتلون الرئيس ، ولكنهم سيقتلون هذا حتمًا .

قالت فى غضب :

ـ لو أنهم عرفوا أنه ليس الرئيس .

قال فى صرامة أدهشتها :

ـ لو أننا فى موضعهم لعرفنا .

بدا لها قوله منطقيًا إلى حد مستفز ، فقالت فى حدة :

ـ اصمت .

غمغم رجل المخابرات الأمريكى فى سخط :

ـ فليكن ..

كانت تشعر بتوتر الدنيا كله يعربد فى أعماقها ، وهى تراقب بديل الرئيس الأمريكى ، الذى واصل طريقه نحو نقطة اللقاء على الشاطئ ، وراحت تتساءل ، ولأوّل مرة ، عما سيكون عليه رد فعل رجال الزعيمة ، إذا ما كشفوا الأمر ، و ...

وفجأة ، ارتفع رنين هاتفها المحمول ، فانتفض جسدها فى عنف غريزى ، وهى تهتف :

ـ يا للسخافة !

ثم التقطت الهاتف بحركة عصبية ، وألقت نظرة على شاشته ، وهى تقول :

ـ لابيانات .

التقى حاجبا رجل المخابرات الأمريكى ، وهو يتطلّع إلى شاشة هاتفها بدوره ، مغمغمًا :

ـ ولكن هذا غير ممكن ، إلا إذا ..

لم يتمّ عبارته ، وهو يتابعها فى اهتمام وانتباه ، عندما وضعت الهاتف على أذنها ، قائلة :

ـ من المتحدث ؟!

اتسعت عيناها عن آخرهما ، وخفق قلبها فى عنف ، عندما سمعت صوت تلك الزعيمة الغامضة ، عبر هاتفها الخاص ، وهى تقول فى سخرية :

ـ أنا واثقة من أنك ستعرفين صوتى على الفور يا عزيزتى المستشارة .

عجزت المستشارة عن النطق لبضع لحظات ، وهى تكتم ذلك الانفعال الجارف فى أعماقها ، قبل أن تقول ، بكل عصبية الدنيا :

ـ ماذا تريدين ؟!

أجابتها الزعيمة بنفس السخرية :

ـ لاشىء .. فقط أردت أن أذكرك أننى أبغض العبث بى ، وأكره أن يحاول الآخرون خداعى .

قالت مستشارة الأمن القومى فى حدة :

ـ ومن حاول خداعك ؟! الحقيبة تحوى ماسات بقيمة مائة مليار دولار بالفعل .

قالت الزعيمة ، دون أن تفقد لهجتها الساخرة :

ـ الحقيبة ليست كل شىء .

سألتها المستشارة ، بمنتهى الحذر :

ـ ماذا هناك أيضًا ؟!

أطلقت الزعيمة ضحكة ساخرة ، قبل أن تقول :

ـ الكثير .

ولم تكد تتم كلماتها ، حتى انهالت النيران من كل صوب ..

خيوط أشعة الليزر المدمرة ، هوت من السماء ، من مدفع الليزر الفضائى القوى ، لتنسف عشرات الأهداف ، من حول السيارة الكبيرة ، التى تجلس داخلها مستشارة الأمن القومى ..

رجال مخابرات متخفون ..

أجهزة مراقبة ..

طائرات هليكوبتر ..

سيارات ..

واتسعت عينا مستشارة الأمن القومى ، بكل رعب الدنيا ، فى حين انتزع رجل المخابرات مسدسه ، وراح يدور فيما حوله ، هاتفًا :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

أما الزعيمة ، فقد ظلت تضحك فى سخرية عابثة ، عبر الهاتف المحمول ..

وتضحك ..

وتضحك ..

وكأن كل ما يتحطم من أهداف ، وكل ما يراق من دماء ، يبعث فى نفسها نشوة ، ما بعدها نشوة ..

أما بديل الرئيس ، فقد تجمد فى مكانه ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، ودوى الانفجارات يصم أذنيه ، وشعور قوى ينتابه ، بأن السبب الوحيد ، لبقائه على قيد الحياة ، هو أنه يحمل تلك الحقيبة ، التى تحوى الماس .

مائة مليار دولار من الماس النقى .

أما مستشارة الأمن القومى ، فراحت فى انفعال ، عبر هاتفها المحمول :

ـ أنت مجنونة .. حتمًا مجنونة ..

واصلت الزعيمة ضحكاتها الساخرة المنتشية ، قبل أن تتوقف فجأة ، قائلة فى شراسة مخيفة :

ـ قولك هذا كان يستحق أن أقتلك بلا رحمة .

سرت قشعريرة باردة كالثلج ، فى جسد مستشارة الأمن القومى ، واتسعت عيناها إلى أقصى حد ممكن ، من فرط الرعب والارتياع ، وهى تردد :

ـ تقتلينى ؟!

حمل قولها كل ما يموج فى نفسها من انفعالات ، فأطلقت الزعيمة ضحكة ساخرة أخرى ، وقالت :

ـ اطمئنى يا عزيزتى .. وفقًا لخطتى ، لم يحن موعد القضاء عليك بعد ؛ فما زلت أحتاج إلى وجودك ، فى هذه المرحلة على الأقل .

وصمتت لحظة ، ثم أضافت فى سخرية :

ـ كشاهد عيان على الأقل .

التقطت أذنا رجل المخابرات الأمريكى العبارة الأخيرة ، فلوح بمسدسه ، قائلاً فى حدة :

ـ وماذا على ؟!

أطلقت الزعيمة ضحكة ساخرة ، وهى تقول :

ـ من الواضح أنك لا تعرف عن مدافع الليزر ، إلا ما تراه فى أفلام الخيال العلمى يا رجل ..

واكتسب صوتها رنة قاسية ، امتزجت بلهجتها الساخرة ، وهى تضيف :

ـ فالواقع أنها دقيقة للغاية ، إلى حد لايمكنك أن تتصوره .

مع قولها ، اخترق خيط من أشعة الليزر فجأة ، سقف السيارة الكبير ، ونسف قمة رأس رجل المخابرات الأمريكى ، وعبر مخه إلى عنقه ، لينطلق منه ، إلى تابلوه السيارة نفسه ، وينسف جزءاً منه بمنتهى العنف ..

واتسعت عينا مستشارة الأمن القومى عن آخرهما ، مع مرأى نافورة الدم ، التى تفجرت من عنق رجل المخابرات ، الجالس إلى جوارها ، ومن قمة رأسه ، قبل أن يتهاوى جثة هامدة ، ويده مازالت تقبض على مسدسه فى قوة ..

وقبل أن تنطلق من حلقها صرخة رعب ، التقطت أذناها هدير مراوح الهليكوبتر ، التى هبطت إلى جوار بديل الرئيس ، ووثب منها اثنان من الرجال المسلحين ، جذباه إلى داخل الهليكوبتر فى شراسة ، قبل أن ترتفع بهم على الفور .

وفى ذهول (مذعور) حدقت مستشارة الأمن القومى فى الهليكوبتر ، التى اتجهت نحوها ، وغمغمت فى ارتياع :

ـ لا .. ليس أنا .

فوجئت بصوت الزعيمة ، ينبعث من هاتفها المحمول ، الذى لم تنه محادثته بعد ، وهى تقول ساخرة :

ـ اطمئنى .. ليس أنت .

ثم أطلقت ضحكة عابثة ، قبل أن تستطرد :

ـ إنه بديل رئيسكم الزائف .

مع قولها هذا ، سمعت مستشارة الأمن القومى صرخة رعب هائلة ، تنطلق من أعلى ، وتقترب فى سرعة من السيارة ..

وتقترب ..

وتقترب ..

ثم ارتطم جسد كبير بزجاج السيارة ، وحطمه بمنتهى القوة والعنف ..

وسقط إلى جوارها ، وسط كومة من الزجاج المهشم ..

وهنا ، لم تستطع مستشارة الأمن القومى الأمريكية كتمان صرخة الرعب ، التى انطلقت من حلقها ..

وبكل انفعالاتها ، راحت تصرخ ..

وتصرخ ..

وتصرخ ..

فذلك الجسد ، الذى سقط إلى جوارها جثة هامدة ، كان جسد بديل الرئيس الأمريكى ..

البديل ، الذى ألقى به رجال الزعيمة من ارتفاع شاهق ، من داخل الهليكوبتر ، دون أدنى رحمة أو شفقة ..

ومع صرخات مستشارة الأمن القومى ، انطلقت ضحكات الزعيمة الغامضة ، حاملة كل سخرية الدنيا ، فى نفس الوقت الذى راحت فيه الهليكوبتر ، التى تحمل حقيبة الماس النقى تبتعد ..

وتبتعد ..

وتبتعد ..

فى قلب المحيط ..

* * *

« مستحيل ! مستحيل ! » ..

هتف الرئيس الأمريكى بالكلمة مرتين ، فى غضب بلاحدود ، وهو يضرب سطح مكتبه بقبضته ، مستطردًا :

ـ (أمريكا) كلها ، بقوتها وتكنولوجيتها ، وكل الأجهزة الأمنية ، التى تتجاوز ميزانيتها المليارات سنويًا ، تعجز عن

القيام بعملية تسليم ناجحة ، وفى حماية شخص ، يفترض أنه أنا ؟!

غمغمت مستشارة الأمن القومى ، التى لم تتجاوز انفعالها بعد :

ـ كانت تعلم أنه ليس أنت .

هتف الرئيس بكل غضبه :

ـ وماذا لو كان أنا ؟!

أجابه مدير المخابرات فى حزم :

ـ عندئذ كان كل شىء سيتغير .

صاح الرئيس :

ـ هذا ما تتوهمون به أنفسكم .

ثم لوّح بسبابته ، فى وجه مدير المخابرات ، مستطردًا بكل انفعالاته الجارفة :

ـ وما تحاولون به إخفاء تقصيركم الرهيب .

هتف مدير المخابرات :

ـ تقصيرنا ؟!

صاح به الرئيس :

ـ ماذا تسمى فشلكم فى تعقُّب الهليكوبتر إذن ؟! مجردُ هليكوبتر ، تنطلق نحو المحيط .. كيف تفشل كل نظمنا الدفاعية فى تحديد وجهتها ؟!

أشار مدير المخابرات إلى وزير الدفاع ، وهو يقول فى صرامة :

ـ سل المسئول عن هذا ، يا سيادة الرئيس .

امتقع وجه وزير الدفاع ، وهو يقول :

ـ لقد بذلنا كل ما بوسعنا .

صاح به الرئيس فى غضب :

ـ حقًا ؟!

ازداد امتقاع وجه وزير الدفاع ، وهو يقول :

ـ لقد درست مسارها جيدًا يا سيادة الرئيس ، وقامت باستخدام مدفع الليزر الفضائى ، لنسف كل محطات الرادار ، التى يمكنها تعقبها .. حتى الأقمار الصناعية ، التى تغطى المنطقة ، تم تعطيلها بوسيلة ما ، بحيث لم تلتقط صورة واحدة ، خلال مسار الهليكوبتر كله .

التقى حاجبا مدير المخابرات ، وهو يقول :

ـ السؤال هو : أين ذهبت الهليكوبتر ، التى حملت حقيبة الماس ؟!

قلب وزير الدفاع كفيه ، وهو يقول فى مرارة :

ـ يمكنها أن تذهب إلى أى مكان ، مادام أحدًا لا يستطيع تعقُّب مسارها .. ربما انطلقت إلى الشمال ، أو إلى الجنوب ، أو...

قاطعه مدير المخابرات فى حزم :

ـ أو إلى الشرق .

التفت إليه الجميع فى دهشة ، وقالت مستشارة الأمن القومى فى حدة عصبية :

ـ لا يمكنها أن تذهب إلى الشرق ، فلن يكون أمامها سوى المحيط .. المحيط وحده .

وأضاف وزير الدفاع :

ـ وهذا يقع كله تحت سيطرتنا .

قال مدير المخابرات فى صرامة :

ـ حقًا ؟!

بدت الدهشة مرة أخرى على وجوههم ، فتابع مدير المخابرات المركزية الأمريكية ، بمنتهى الحزم والصرامة :

ـ فالمصريون لهم رأى آخر .

اتسعت عينا الرئيس فى استنكار ، وانقلبت سحنة وزير الدفاع فى استهجان ، فى حين انتفض جسد مستشارة الأمن القومى ، وهى تهتف فى غضب :

ـ المصريون ؟!

واحتقن وجهها ، من شدة الغضب ، وهى تستطرد :

ـ ومنذ متى كان للمصريين رأى فى شئوننا ؟!

أجابها مدير المخابرات ، بمنتهى الحزم والصرامة :

ـ منذ استعنا برجل مخابراتهم ، لتجاوز هذا المأزق .

صاحت فى حدة :

ـ هذا لا يمنحهم الحق فى ...

قاطعها الرئيس فى صرامة شديدة ، وهو يسأل مدير مخابراته بكل اهتمام :

ـ ما رأى المصريين ؟!

استدارت إليه مستشارته الأمنية فى استنكار غاضب ، ولكنه تجاهلها تمامًا ، وهو يكرّر سؤاله :

ـ ما رأيهم ؟!

استدار إليه مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ يرون أنه هناك غوّاصة ، وراء كل هذا .

هتفت مستشارة الأمن القومى ، فى استنكار عصبى :

ـ غوّاصة ؟! أى هراء هذا ؟!

تجاهلها وزير الدفاع هذه المرة ، وهو يسأل :

ـ أى نوع من الغوّاصات ؟!

احتقن وجهها ، وأطبقت شفتيها فى غضب ، ومدير المخابرات يجيب وزير الدفاع :

ـ غوّاصة حاملة طائرات ، كما وصفوها فى اتصالهم العاجل .

اتسعت عينا وزير الدفاع عن آخرهما ، وهو يهتف :

ـ غوّاصة حاملة طائرات ؟!

بدا وكأن ساقيه قد عجزتا عن حمله ، فترك جسده يسقط على مقعده ، وهو يضيف في شحوب :

ـ ولكننا لم نكمل هذا المشروع بعد .

هتفت مستشارة الأمن القومي ، في ارتياع غاضب :

ـ لم نكمل ماذا ؟!

ثم صرخت في ثورة :

ـ أتعني أنه هناك شيء كهذا بالفعل ؟!

أجابها وزير الدفاع في حدة :

ـ إنه حتى لم يكتمل بعد .

قال مدير المخابرات في صرامة :

ـ تلك الغامضة مازالت تسبقنا بخطوة إذن .

هتف وزير الدفاع في ارتياع :

ـ ولكن هذا مستحيل !

التفت إليه مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ هل تعتقد هذا ، بعد كل ما مررنا به ؟!

بدت الحيرة على وجه وزير الدفاع ، واتسعت عينا الرئيس عن آخرهما ، في حين غمغمت مستشارة الأمن القومي ، بكل عصبية الدنيا :

ـ لو أن لدينا مشروعاً كهذا ، فلن يدهشني أنها قد سبقتنا إليه .

ثم لوحت بذراعيها ، مستطردة :

ـ فلدينا فجوة هائلة ، في جدار معلوماتنا .

ورمقت مدير المخابرات بنظرة مقت ، قبل أن تضيف :

ـ فجوة تستحق إحالة جهاز المخابرات المركزية كله إلى التقاعد .

استدار إليها مدير المخابرات بحركة حادة ، قائلاً :

ـ أو عزل مستشارة الأمن القومي .

احتقن وجهها ، و...

« كفى .. »

هتف الرئيس بالكلمة ، قبل أن ينهض ، صائحاً في غضب :

ـ لقد سئمت هذه الخلافات الصبيانية .

ثم سأل مدير المخابرات في حزم :

ـ هل أقنعك ما يراه المصريون ؟!

أجابه مدير المخابرات ، في حزم مقتضب ، وهو يشد قامته في اعتداد :

ـ نعم .

وغمغم وزير الدفاع :

ـ وأنا أيضًا .

التفت الرئيس إلى مستشارته الأمنية ، متسائلاً في صرامة :

ـ وماذا عنك ؟!

قالت في حدة :

ـ ما يقولونه يبدو أشبه بروايات الخيال العلمي .

ثم التقطت نفسًا عميقًا ، قبل أن تضيف :

ـ ولكن ليس لدينا أي تفسير سواه .

قال الرئيس بمنتهى الصرامة :

ـ عظيم .

ثم التفت إلى مدير المخابرات ، مستطردًا بلهجة آمرة :

ـ اطلب مساعدة المصريين رسميًا .

اتسعت عينا مستشارة الأمن القومي ، وهي تهتف مستنكرة :

ـ سيادة الرئيس .

رفع الرئيس الأمريكي صوته أكثر ، ليطغى على استنكارها ، وهو يواصل ، بنفس اللهجة الآمرة :

ـ أطلعهم على كل ما لدينا ، وخذ منهم كل ما لديهم ، فسنبذل كل طاقتنا ، في سبيل الخروج من هذا المأزق ، والتغلب على تلك الغامضة ، وسيقاتلون هم بلا هوادة ، حتى يعرفوا مصير رجلهم ، وينجحوا في استعادته .

قال مدير المخابرات الأمريكية ، في لهجة شفت عن ارتياحه :

ـ كما تأمر يا سيادة الرئيس .

احتقن وجه مستشارة الأمن القومي أكثر وأكثر ، ولكن الرئيس واصل تجاهله التام لها ، وهو يسأل مدير المخابرات :

ـ يقولون : إنك قد توصلت إلى هوية تلك الغامضة .. أهذا صحيح ؟

تردد مدير المخابرات لحظة ، قبل أن يقول :

ـ الواقع أنه لدينا بعض الشكوك يا سيادة الرئيس ، و...

قبل أن يتم عبارته ، اشتعل التلفاز الكبير فى الحجرة بغتة ، فانتفضت أجسادهم جميعًا ، وهتفت مستشارة الأمن القومى ، بكل ذعر واستنكار الدنيا :

ـ مستحيل لقد تم تأمين المكان تمامًا .

ومع آخر كلماتها ، وعلى الرغم من ذهولها واستنكارها ، وكل ما بذلته من جهد ، لتأمين البيت الأبيض ، ظهرت على شاشة التلفاز صورة آخر وجه يتمنون رؤيته ، فى تلك اللحظة ..

أو فى أية لحظة أخرى ..

صورة الزعيمة ..

زعيمة العالم الجديد ..

بافتراض ما سيكون .

* * *

٨ ـ الشيطانة ..

فى واحدة من الحالات النادرة ، ارتسمت ابتسامة كبيرة ، على شفتى قائد قوات الزعيمة ، وهو يخفض مدفعه الآلى القصير ، ويستقبل الصينية الحسناء (تيا) ، قائلاً :

ـ مرحبًا يا جميلتى .. كيف حال أسراك ؟!

هزت (تيا) كتفيها الصغيرتين المستديرين ، وهى تقول فى بساطة :

ـ المرأة مصابة بالاكتئاب نفسه ، أما رجل المخابرات المصرى ، فأظنه سيقضى فترة طويلة هذه المرة ، فى حالة فقدان الوعى ؛ فالصدمة كانت أعنف من كل مرة .

قال الرجل فى ازدراء :

ـ إنه ليس بالقوة التى تصورونه بها .

رمقته بنظرة ساخرة ، وهى تقول :

ـ أهذا ما تظنه ؟!

أجابها فى صرامة :

ـ هذا ما ستثبته الأيام .

عادت تهزّ كتفيها ، قائلة :

ـ ربما .

اخترقت ابتسامة ملامحه الصارمة مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ أتعلمين أنك فاتنة بحق ؟!

ابتسمت ، قائلة :

ـ ليس أكثر فتنة من الزعيمة .

كاد يقول شيئاً ما ، إلا أنه فضّل الاحتفاظ به في أعماقه ، وهو يغمغم :

ـ هذا صحيح .

لم يرق لها قوله ، ولكنها سألته في هدوء :

ـ أين هي ؟!

أشار بيده ، قائلاً :

ـ تجرى اتصالها بهم .

ارتفع حاجبا (تيا) وانخفضا ، قبل أن تبتسم ، قائلة :

ـ كم تبهرني .

حاول أن يبتسم ، وهو يقول :

ـ إنها تبهر الجميع .

تصوّرت لحظة أنه سيكتفي بهذا القول ، إلا أنـه لم يلبث أن تابع :

ـ فهي جميلة ، وذكية ، وبارعة ، و...

قاطعته ، قائلة :

ـ وقاسية .

أضاف في سرعة وتلقائية :

ـ إلى أقصى حد .

لم يكد ينطقها ، حتى خشي أن يكون قد تجاوز حدوده ، فاستدرك في سرعة وتوتر :

ـ وهذا ما تحتاج إليه الزعامة .

قالت في حسم :

ـ بالتأكيد .

ثم مالت نحوه ، تسأله :

ـ وماذا عن الماس ؟!

أشار بإبهامه خلف ظهره ، مجيبًا :

ـ إنه معها بالداخل .

برقت عيناها ، وهى تقول :

ـ تصوّر ماسات بمائة مليار دولار .. ياللهول ! لم أتخيّل أبدًا وجود كل هذا الماس فى العالم .

تنهد ، قائلاً :

ـ هى كانت تعلم ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ وتفهم .

وافقته بإيماءة من رأسها ، وقالت :

ـ من الواضح أنها خبيرة فى الماس .

هتف :

ـ يبدو أنها خبيرة فى كل شىء .

مطّت شفتيها ، وهزّت كتفيها مرة أخرى ، دون تعليق ، ثم سألته فى اهتمام :

ـ هل تعلم ما الذى تنوى فعله بشأن المصرى ؟!

كاد يخبرها أنه لا يعلم ، إلا أن فكرة ما وثبت إلى ذهنه بغتة ، وجعلته يقول فى حذر :

ـ ستتخلّص منه حتمًا .

سألته فى اهتمام :

ـ هل ستنفذ الخطة (ب) ؟!

لم يكن يدرى ما تعنيه بقولها ، ولكنه أجاب فى سرعة :

ـ بالتأكيد .

مطّت شفتيها ، مغمغمة :

ـ ياللخسارة !

ثم عادت تسأله :

ـ ومتى ستفعل هذا ؟!

عربدت فى أعماقه تلك الفكرة المجنونة مرة أخرى ، فقال :

ـ الآن .

هتفت بكل دهشتها :

ـ الآن ؟! أأنت واثق ؟!

أجابها فى حزم خادع :

ـ لقد انتهت من عمليتها ، وحصلت على الماس بالفعل .. أليس كذلك ؟!

بدا لها قوله منطقيًا ، كما أنها لم تتصور لحظة أنه يمكن أن يتخذ مثل هذا القرار ، دون الرجوع إلى الزعيمة ، أو التيقن من موافقتها على الأقل ، فهزت رأسها ، قائلة :

ـ فليكن .. سأتخذ كل الإجراءات فورًا ، قبل أن يستعيد وعيه .

شد قامته ، قائلاً :

ـ نعم .. هذا أفضل .

وتألقت عيناه فى ظفر ..

وفى نفس اللحظة ، التى انصرفت فيها (تيا) ؛ لتنفيذ الخطة (ب) ، كانت الزعيمة تطلق ضحكة ظافرة ساخرة ، وهى تواجه شاشة الاتصال ، قائلة :

كنتم تتصورون أنكم تسيطرون على كل الأمور .. أليس كذلك ؟!

صاح بها الرئيس ، وهو ينتزع نفسه من دهشته :

ـ لقد تعاملت مع الموقف بمنتهى الوحشية .

أجابته فى شراسة :

ـ وأنتم تعاملتم مع الموقف بمنتهى الخسة .

هتفت مستشارة الأمن القومى :

ـ كان من المستحيل أن نجازف بحياة الرئيس .

قالت الزعيمة فى صرامة :

ـ لابد أن تتعلموا إذن ، أن المستحيل الوحيد ، هو ألا تنفذوا أوامرى حرفيًا .

قال وزير الدفاع فى توتر :

ـ لقد حصلت على الماس .

مطت الزعيمة شفتيها ، وهزت كتفيها ، ثم أشعلت واحدة من سجائرها الحمراء فى بطء ، ونفثت دخانها فى عمق ، قبل أن تفتح حقيبة الماس ، الموضوعة أمامها ، وتملأ قبضتها بالماسات البراقة اللامعة ، قائلة :

ـ ولكن هذا لا يكفى .

سألها الرئيس فى عصبية :

ـ ما الذى يكفيك إذن ؟!

تألقت عيناهـا ببريق قـوى ، فـاق بريق المـاس نفسـه ، وهى تقول فى شراسة مخيفة :

ـ الطاعة .. الطاعة والسيطرة ، بلا حدود .

سألها وزير الدفاع فى استنكار :

ـ هل تسعين للسيطرة علينا ؟!

هزت رأسها فى بطء ، ثم أجابت فى وحشية :

ـ بل للسيطرة على (أمريكا) كلها .

تفجرت الدهشة فى نفوسهم جميعًا ، لصراحتها الوقحـة ، وإجابتها الوحشية المباشرة ، إلا أن هذه الدهشة لم تلبث أن تحولت إلى ذهول ، وهى تضيف :

ـ كخطوة أولى .

اتسعت عينـا الرئيس ، وشهق وزير الدفــاع ، وانعقد حاجبا مدير المخابرات فى شدة ، فى حين هتفت مستشارة الأمن القومى غاضبة مستنكرة ، وبمنتهى الحدة :

ـ خطوة أولى ؟!

تضاعف بريق عينى الزعيمة ، وهى تجيب :

ـ بالتأكيد ، فالخطوة القادمة هى العالم .. العالم كله .

تبادل الكل نظرة ذاهلة ، وهتف الرئيس الأمريكى :

ـ هذا جنون .. جنون مطبق .

مالت الزعيمة نحو الشاشة ، قائلة :

ـ أهو جنون مطبق ، فقط لأن الذى يسعى إليه ليس الولايات المتحدة الأمريكية ؟!

قال مدير المخابرات :

ـ كل من حاول السيطرة على العالم ، انتهى بـه الحال إلى الموت ، أو الجنون ، أو الهزيمة .

قالت فى سرعة :

ـ حقًا ؟!

ثم اعتدلت ، وهى تطلق ضحكة عالية مجلجلة ، قبل أن تكمل فى صرامة :

ـ لماذا لم تنصح رئيسك بهذا إذن ، عندما سعى لاحتلال العالم ، والسيطرة عليـه بالقوة ؟! لم لم تحـاول أن تبصره بالعواقب ،

وهو يطلق قواته وأسلحته ، نحو حقول النفط ، في (أفغانستان) و(العراق) ؟!

قالت مستشارة الأمن القومي في عصبية :

ـ هذا أمر يختلف .

صاحت بها الزعيمة في غضب :

ـ ولماذا يختلف ؟! ألأنها المصالح الأمريكية ، التي تجب كل شيء آخر في الوجود ؟! والتي تبيح كل تجاوز ، وكل احتلال ، وكل قسوة ، وكل وحشية ، مادام الهدف سيتحقق في النهاية ؟!

بدا من الواضح أن غضبها سيتجاوز كل الحدود ، لذا فقد اندفع مدير المخابرات الأمريكية يقول ، محاولاً تهدئة الأمور :

ـ لا بأس .. إننا نتفهم وجهة نظرك جيدًا ، يا ...

توقف لحظة ، راودته خلالها فكرة ما ، لم يتردد في تحويلها إلى واقع ، وهو يكمل :

ـ يا دونا (ماريانا) ..

انعقد حاجبا الزعيمة في شدة ، وبدت الدهشة على وجهها

لحظة ، ولأول مرة ، منذ بدأت تلك الأحداث ، فتطلع إليها الكل في اهتمام شديد ، وأرهفوا أسماعهم ، لالتقاط كل حرف تنطق به ، وخاصة عندما رددت ، فيما أشبه بالحيرة :

ـ دونا (ماريانا) .

غمغم مدير المخابرات ، وقد خُيِّل إليه أنه قد التقط طرف الخيط ، الذي سيقوده إلى هويتها :

ـ لقد جمعنا كل المعلومات التي ...

ولكنها قاطعته بغتة ، وهي تكرِّر في سخرية :

ـ دونا (ماريانا) ؟!

وانطلقت من حلقها ضحكة عالية مجلجلة ..

ضحكة جعلتها بالفعل أشبه بشيطانة ..

شيطانة فرَّت من أعمق أعماق الجحيم ، لتعيث الفساد في الأرض ..

بلا هوادة ..

وبلا حدود ..

وبلا رحمة ..

وتجمدت مشاعر الجميع ، وهم يتطلعون إليها ، فى حين هتفت هى فى سخرية شديدة :

ـ هل كنتم تتصورون أننى دونا (ماريانا) ؟! أهذا بسبب الماس ؟!

ملأت قبضتها بحفنة أخرى من الماس النقى ، ثم طوحتها فى الهواء بحركة مسرحية مستفزة ، مكملة :

ـ يا لسذاجتكم !

ملأ التوتر نفوسهم جميعاً ، ولم ينطق أحدهم بكلمة واحدة ، فى حين اكتسب وجهها هى قساوة شديدة ، وهى تكمل :

ـ ويا لقصور تفكيركم !

انتفض مدير المخابرات ، وهو يقول :

ـ الواقع أننا .

صاحت به فى قسوة :

ـ اصمت .

ثم عادت عيناها تتألقان ، ولكن ببريق وحشى رهيب هذه المرة ، وهى تقول :

ـ لقد تجاوزتم القواعد المتفق عليها ، ويحق لى أن أعاقبكم على تجاوزكم هذا .

هتف مدير المخابرات :

ـ ولكن ليس من الـ ...

صرخت فيه مرة أخرى :

ـ قلت : اصمت .

احتقن وجهه بشدة ، ولكنها تابعت غير مبالية :

ـ فى هذه المرة ، ستنفذون ما آمركم به دون مناقشة ، ولو لم يتم كل شىء ، كما أقرر تماماً ، ستكون العواقب وخيمة .. وخيمة أكثر مما تتصورون .. ليس عليكم وحدكم ، ولكن على مصير أمتكم كلها .

قالتها ، بكل شراسة ووحشية الدنيا ، قبل أن تلقى مطالبها ..

وكانت صدمة رهيبة للجميع ..

فما طلبته هذه المرة ، كان يتجاوز كل الحدود ..

بل كل المقاييس وقواعد العقل ..

وإلى آخر مدى ..

* * *

وقفت (تيا) الحسناء بضع دقائق ، تتطلع إلى (أدهم صبرى) ، الفاقد الوعى فوق فراشه الخشن الصغير ، داخل تلك الزنزانة ، قبل أن تهز رأسها ، مغمغمة :

ـ يا للخسارة ! إنه شديد الوسامة بحق .

ثم أشارت إلى رجلين ضخمى الجثة ، وهى تضيف بلهجة آمرة :

ـ هيا .. احملاه إلى هناك .

اتجه الرجلان إلى حيث يرقد (أدهم) ، وحملاه فى خفة ، و(تيا) تغمغم فى أسف :

ـ كان بارعًا فى إبطال عمل سوار الأمن ، ولكن كيف له أن يعلم أن الزعيمة قد أضافت صاعقًا إضافيًا أكثر قوة إلى حزامه .

هزت رأسها مرة أخرى ، وهى تتبع الرجلين ، اللذين انطلقا بجسد (أدهم) الفاقد الوعى ، عبر ممرات المكان ، قبل أن يصلا إلى حجرة صغيرة ، فى القاع ، فأشارت (تيا) بيدها ، قائلة :

ـ هنا .

التفت إليها أحد الرجلين ، يسألها فى اهتمام :

ـ أهى أوامر الزعيمة ؟!

أجابته فى صرامة :

ـ ومن يجرؤ على القيام بإجراء منفرد ؟!

غمغم الرجل :

ـ أنت على حق .

أشارت بيدها ، قائلة فى تعال آمر :

ـ هيا .

تعاون الرجلان على إدارة عجلة معدنية كبيرة ، حتى انفتحت كوة متوسطة الحجم ، كاشفة طوربيدًا بحريًا ، يستقر داخل أنبوب الإطلاق ، فقالت فى صرامة :

ـ هيا .. لانريد أن نضيع الوقت .

انتفخت عضلات الرجلين ، وهما يجذبان الطوربيد إلى ونش خاص ، ويعلقان حلقته فى خطافه ، ثم ضغط أحدهم زرًا مجاورًا ، فسحب الونش الطوربيد خارج أنبوب الإطلاق ، والرجل يغمغم :

ـ الزعيمة تريد قتل هذا الرجل بأسلوب فنى .

غمغم الآخر فى سخط :

ـ ولماذا كل هذا الجهد ؟! يمكننى أن أحطم رأسه بقبضتى ، وأوفر كل الوقت والتعب .

سألته (تيا) :

ـ وهل ستخالف أوامر الزعيمة ؟!

تبادل الضخمان نظرة شديدة القلق ، قبل أن يجيب الآخر :

ـ ومن يجرؤ على هذا ؟!

أضاف الأول مغمغماً :

ـ نعم .. من يجرؤ ؟!

ابتسمت فى ظفر ، ونقلت بصرها بينهما فى تحد ، ثم قالت ، وهى تشير إلى جسد (أدهم) :

ـ أكملا مهمتكما إذن .

غمغم الأول :

ـ على الرحب والسعة .

وتعاونا هذه المرة على حمل جسد (أدهم) ، الذى انطلقت منه همهمة خافتة ، توحى بقرب استعادته الوعى ، فقالت (تيا) فى توتر واضح شديد :

ـ أسرعا .. لو استعاد وعيه ستصبح كارثة .

ابتسم أحد الضخمين ، وهو يقول فى زهو :

ـ لن يمكنه هزيمتنا معاً .

أجابته فى صرامة :

ـ لو استعاد وعيه ، سيحطم أنفيكما معاً ، ويهشم رأسيكما أيضاً ، قبل أن تدركا ما حدث .

توقفا لينظرا إليها فى استنكار ، فصاحت بهما :

ـ قلت : أسرعا .

حمل الرجلان جسد (أدهم) فى سرعة ، ودفعاه داخل أنبوب إطلاق الطوربيد ، وهى تقول :

ـ هيا .. أغلقا الكوة ، حتى يطمئن قلبى .

شعر بهما (أدهم) ، وهما يدفعانه داخل أنبوب الإطلاق ، ولكن عقله ، الذى لم يستعد صفاءه بعد ، لم يستوعب الموقف تماماً ، وإن سمعت أذناه صوت كوة أنبوب إطلاق الطوربيد ، وهى تغلق فى إحكام ، قبل أن يغرق فى صمت وظلام قاسيين ..

صمت وظلام أشبه بالقبور ..

أما في الخارج ، فقد سألت (تيا) الرجلين :

ـ هل أغلقتماها في إحكام ؟!

أومأ الرجلان برأسيهما إيجابًا ، وقال أحدهما :

ـ ولا توجد وسيلة واحدة ، لفتحها من الداخل .

غمغمت :

ـ عظيم ..

ثم تراجعت لحظة ، وألقت نظرة أخيرة على الكوة المغلقة ، قبل أن تهزّ رأسها في أسف ، وتستعيد وسامة (أدهم) في ذهنها ، مغمغمة :

ـ يا للخسارة !

ابتسم الضخمان في خبث ، فاستعادت صرامتها ، وهي تقول :

ـ ابتعدا .

أطاعاها في استسلام ، فاتجهت نحو لوحة إطلاق الطوربيدات ، وأمسكت ذراع الإطلاق ، قائلة بمنتهى الصرامة :

ـ وداعًا يا سيد (أدهم) .. أرجو أن تجد في المحيط مستقرًا أبديًا مناسبًا .

قالتها ، ثم جذبت ذراع إطلاق الطوربيد ..

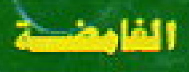
وبكل الحسم والحزم .

* * *

انتهى الجزء الثاني بحمد الله

ويليه الجزء الثالث بإذن الله

[الخطة (ب)



• هل يمكن أن ينجو (أدهم) .. بعد سقوط مقاتلته .. في قلب المحيط ؟!

• من تلك الزعيمة الغامضة .. وما الذي تسعى إليه بعمليتها المعقدة بالضبط ؟!

• ترى من سيربح هذه المرة .. (أدهم صبري) ، أم الزعيمة (الغامضة) ؟!

• اقرأ التفاصيل المثيرة .. وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل .. (رجل المستحيل) .



العدد القادم (الخطة . ب .)





د. نبيل فاروق

رجل المستحيل

سلسلة روايات بولية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

147